



فنتشيزو تشيرامي

موظف عادي جداً

علي مولا

رواية

تم نشر هذه الرواية بتمويل من وزارة الخارجية الإيطالية

العنوان الأصلي للرواية بالإيطالية:

Un borghese piccolo piccolo

موظف عادي جداً

رواية

تأليف

فنتشيزو تشيرامي

الترجمة من الإيطالية

وسيم دهمش

دار شرق / غرب
Sharq/Gharb



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بعضن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإيطالي لرواية Vincezo Cerami

Un borghese piccolo piccolo

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

Garzanti Libri

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2007 by Garzanti Libri

All rights reserved

Arabic Copyright © 2009 by

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L. and Sharq/Gharb

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 8-681-87-9953-978

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

دار شرق/غرب

Sharq/Gharb

Via Gabriele Camozzi, 1

00195 Roma - Italia

Tel. (+39) 06 3722829 / Fax (+39) 06 37351096

www.edizionieo.it

www.europaeditions.com



التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

مُقَدِّمَةٌ

الراوي والرواية

لا يُذكر اسم فنتشِنزو تشرامي إلا وتلازمه صفة "كاتب رواية البرجوازي الصغير الصغير". هذا هو العنوان الإيطالي للرواية التي نقدّمها هنا لقارئ العربيّة. وهذه الرواية، باكورة أعمال فنتشِنزو تشرامي الروائيّة، أعطته شهرة عظيمة فعند ظهورها عام 1976 كان لها صدى واسعًا ليس في الأوساط الأدبيّة فحسب بل لدى جمهور القراء الغفير كما تُرجمت سريعًا إلى العديد من اللغات الأوروبيّة.

وقد بدأ تشرامي حياته الأدبيّة في مجال الكتابة السينمائيّة التي برع فيها منذ أن كتب أول سيناريو للمخرج فرانكو روسّتي عام 1967. وقد تعلم صناعة الكتابة السينمائيّة على يد الكاتب الكبير بيير باولو بازوليني فقد عمل مساعدًا له في إخراج أحد أفلامه (مهرجانات الخطابة الغرامية) عام 1965 وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، كما عاونه على إخراج فيلم "طيور وعصافير" عام 1966 وفيلم "الأرض كما يراها القمر" عام 1967.

لم يتوقّف تشرامي عن الكتابة للسينما أبدًا فقد كتب السيناريو لاثنتين وأربعين فيلمًا حتى اليوم. براعته في الكتابة السينمائيّة تحاكي قدرته على استعمال أدوات تعبيرية أخرى فهو ما يزال يُزاول الكتابة الصحفيّة والمسرحيّة بالإضافة إلى ما يُصدره من رواياتٍ ومجموعات قصصيّة تتمتّع جميعها بحسن الصياغة ومثانة الحكمة وسهولة الألفاظ

وسلسلة السرد. وقد يعود مرّد جزءٍ من النجاح المنقطع النظير الذي لاقته روايته الأولى إلى الفيلم الذي أخرجه في العام التالي لصدورها ماريو مونيتشيلي وهو المخرج الذي يتمتّع باحترام كبير في الأوساط الثقافيّة الأوروبيّة. وقد كتب تشرامبي سيناريو الفيلم كذلك. ويختلف السيناريو عن الرواية في بعض التفاصيل، فقد كان كاتبنا دائم الانتباه إلى ضرورة اختلاف الأدوات السردية باختلاف الأشكال التعبيرية، وتجربته في هذا المجال واسعة للغاية فهو يرى بحق أنّ لكلّ فنّ لغته الخاصّة وعلى الكاتب أن يتقيد بلغة الفنّ الذي اختاره، فالكتابة السردية روائية كانت أم قصصية كتابةً أدبية خالصة، أما الكتابة المسرحية فيرى فيها كتابة ثلاثية الأبعاد ترمي إلى تكوين المشهد المسرحي الذي يحاكي الواقع ويتفاعل فيه المشاهد والممثل بخلاف الكتابة السينمائية التي يعتبرها ثنائية الأبعاد حيث تخلق مشهداً مستويًا استواء عدسة الكاميرا والشاشة التي يُعرض عليها الفيلم وتستدعي انتباه حاستي النظر والسمع، وكلها تختلف عن الكتابة الإذاعية التي لا تستدعي إلا السمع. وفي هذا المجال يقول:

يجب على الكاتب أن يتملّك معرفة عميقة بلغات الكتابة المتنوّعة
ووعياً باختلافها كما يجب عليه في الوقت نفسه ألاّ ينسى الأبعاد
التي يستثنىها الفنّ كما هو متعارف عليه.

فهو يستثنى تلك الأبعاد عارفًا واعيًا بما يفعله، فالكتابة إذن صنعة
كباقي الصناعات.

وقد أوضح أفكاره هذه في كتاب يحكي بعضًا من تجربته الأدبية
"نصائح للكاتب الشاب" وفيه يؤكد المؤلف على نظريته التي تنظر
إلى الأدب ليس كوحى منزل على الأديب بل كصنعة يجب دراستها
وتعلّمها وإتقانها فهو يقول:

لو أمكن جمع كلِّ اللحظات الخلاقة التي تمرُّ على الكاتب خلال كل حياته الأدبيَّة لما تجاوزت خمس دقائق أمَّا الباقي فهو عمل ودأبٌ يومي كعمل النجَّار وقد يكون مملًا أحيانًا.

من هنا جاء سيناريو فيلم "البرجوازي الصغير الصغير" مختلفًا بعض الاختلاف عن الرواية. وقد اتخذنا للترجمة العربيَّة عنوانًا مغايرًا شكلاً رأينا فيه تعبيرًا أقرب في العربيَّة إلى ما أراد به الكاتب من وصفٍ لحال شريحة اجتماعيَّة تمتاز عن غيرها بمواصفات محددة وتؤثر في المجتمع تأثيرًا كبيرًا، فبطل الرواية موظفٌ صغير شارف على التقاعد، محدود الثقافة، مُخلصٌ في عمله، حياته تسير بانتظام ويرغب في توظيف ابنه في الوزارة نفسها التي يعمل فيها وهو على استعداد أن يتملِّق لروَّسائه وأن يتحايل على القانون من أجل ذلك، بل يرضى بالانضمام إلى الماسونيَّة رغم عدم معرفته بأيِّ شيء عنها.

وعندما يُقتل ابنه عرضًا في حادث سطو مسلَّح على أحد المصارف يسعى إلى الانتقام من القاتل شخصيًّا بل يقوم بتعذيبه عوضًا عن تسليمه للعدالة.

نحن إذن أمام تغيُّر أخلاقي في شخصيَّة هذا الإنسان البسيط يُشير إلى التغيُّرات الاجتماعيَّة الحاصلة في إيطاليا المعاصرة في مرحلة التطوُّر الصناعي الحديث. فاللجوء إلى الماسونيَّة مثلًا تعبيرٌ عن انحسار سيادة القانون وضعف مؤسَّسات الدولة أمام ظاهرة المحسوبيَّة.

إنَّ الأزمة التي يعيشها بطل الرواية بفقده ولده هي أزمة مُجتمع فقد البوصلة الأخلاقيَّة عند فقده للثوابت الاقتصاديَّة والسياسيَّة للحياة التقليديَّة في مرحلة انتقاله إلى الحياة الصناعيَّة الحديثة، وهي أزمة سياسيَّة ومؤسَّسيَّة تفتح الطريق أمام الأساليب الملتوية في التعامل الاجتماعي وتفقد العلاقات الاجتماعيَّة نحو درجة أعلى من العنف.

البرجوازي الصغير ليس إلا الشاب الريفي الذي يهجر قريته

النائية ويرحل إلى المدينة الكبيرة وهو يرى في هجرته تقدُّماً في السلم الاجتماعي وهو على استعداد أن يدفع ثمن هذا التقدُّم المزعوم على حساب أهله وعواطفه:

كان الرحيل مغامرة، سواء أراد أم أبي، لكنه كان مفعماً بالأمل فيطفئ كآبته وحنينه إلى أرضه وأهله والبيت الذي وُلد فيه. عبرته غصّة في حلقة.

ولكنّه على الرغم من "الغصّة في الحلق" فخور بما أحرزه من نجاح:

اليوم هو أب لابن وُلد في المدينة: المحاسب فيالدي وعمره عشرون سنة. عندما كان شاباً صغيراً، كان كل ما يلي محطة القطار في قريته غامضاً ومجهولاً (...). الوضع مختلف بالنسبة لماريو فقد ولد في المدينة ولن يشعر بالكآبة أبداً فكل شيء بمتناول يده: البيت والأهل والمكتب والترفع في الوظيفة.

وهو يرى في شهادة ابنه المدرسيّة المتواضعة نجاحاً شخصياً له يعني تقدُّماً اجتماعياً آخر يضاف إلى التقدُّم السابق الذي أحرزه بانتقاله من الريف إلى المدينة، لكنّه نجاح أناني يرى ارتباطه بالتطوُّر العام من منطلق شخصي محض:

لك مستقبل زاهر، بحق الله. ستبدأ حيث وصلت أنا بعد ثلاثين عاماً من الخدمة. وأنت... ما زلت في العشرين من عمرك. الشاب الشاطر يفكر بمستقبله ولا يفكر بأي شيء آخر وليمت الآخرون قهراً وشنقاً.

لا يرمي الكاتب على كاهل المجتمع تبعه ما آل إليه بطل الرواية بالكامل، فهو في مطلع سرده يروي لنا كيف شوى جوفاني وابنه سمكة اصطاداها:

أمسك جوفاني بيديه السمكة المجنونة وشدَّ عليها بأقصى ما يستطيع من قوة (...). وضع الأب السمكة المتقافزة على صخرة في الأرض وبدأ يهوي بالحجر على رأسها. كسا الدم الحجر لكن كان

للسمكة سبع أرواح. ظنَّ جوفائي أنَّ السمكة قد ماتت، لكنَّ ذنبها تحركَ وتلوى فهوى عليها مجدِّداً بحجره المدبِّب مرّات ومرّات. أخيراً ماتت السمكة. سأل ماريو: «هل ماتت؟» أجاب جوفائي: «ماتت!».

قتل السمكة بعد صيدها يوحى بتأصل العنف في طبع جوفائي قبل تكاثف الأحداث العرضيّة والظروف الاجتماعيّة التي ألبسته حقداً مكيناً. الأحوال المجتمعيّة إذن قد تقوم مقام الشرارة لكن الفتيل شخصيّ ينبت عند أناسٍ ولا ينبت عند غيرهم. البرجوازي الصغير مشغول بهومومه وبأحواله فلا يهتمُّ بمشاعر الآخرين وإن كانوا من أقرب المقرّبين له.

عندما روى جوفائي لزوجته كيف قبض على القاتل وماذا فعل به لم يرَ الرعب في عينيها على الرغم من حبّه لها وسهره على رعايتها:

قال جوفائي لزوجته إنه أمسك بقاتل ماريو وإنه قد أخذه إلى الريف. لم يكن يعرف ماذا يريد أن يفعل به ولكنه سيفكر بالأمر فلديه متسع من الوقت. أكل بسرعة فهو يريد أن يلحق بفريسته بأقصر وقت. كانت السيدة أماليا حبيسة جسدها المشلول تستمع إليه وتدير عينيها في محجريهما وتكلم بلغة المورس. لم يكن زوجها ينتظر منها ردّاً فاستمرّ في سرده دون أن ينظر إليها.

وقد تعيّر المشهد في الفيلم حيث تموت الزوجة لدى رؤيتها ما فعل زوجها. كما تعيّر العديد من المشاهد في الفيلم انطلاقاً من أفكار تشرامي حول تنوع أساليب الكتابة بتنوع وسائط التعبير فجاءت أشدّ ممّا هي في الكتاب، فالمشهد السينمائي بسرعه لا يتقبّل الوصف التحليلي الذي يُقرأ في كتاب. كما جاءت نهاية الفيلم مختلفة في تجسدها وإن كانت مطابقة لما ورد في الكتاب في معناها، فالعنف الذي استولى على بطل الرواية واضح في وصف تصرفاته اليوميّة بعد

دفن القاتل القتل، أما في الفيلم فقد لزمه مشهد آخر يدل على أن استيلاء العنف على طباع بطل الفيلم لم يعد عابراً بل أصبح ملازماً له في كل تصرفاته.

تعطي الرواية في مجملها صورة حيّة عن المجتمع الإيطالي وتكشف عن عيوب مؤسسات الدولة لكنّها بالدرجة الأولى تصف للقارئ رجل الشارع بمحاسنه ومساوئه وفضائله ونواقصه وصفاً لا يخلو من السخرية، فكما كان يقول مخرج الفيلم ماريو مونيتشيلي ما دام هناك مجال للسخرية في مجتمع هناك مجال للإصلاح.

وسيم دهمش

موظف عادي جداً

قاطع جوفاًني حديث ابنه قائلاً: "هل استطعت حقاً أن تجيب على كل تلك الأسئلة".

أوما ماريو برأسه إيجاباً بحركة تدل على اعتزازه بنفسه.

"رائع"، استمر جوفاًني بينما كان يهزُّ قصبه صنارته كي يرى إن علقته بها سمكة: "تصوّر لو كان عندنا كل النقود التي افترضتها المسألة الحسابية لكنت استطعت أن نضاعفها في سنة واحدة".

استلقى ماريو على الحشيش ونظر إلى السماء فرآها كلوح مكسوٍ بالجبس.

"الأرقام شيء آخر يا أبي".

"ابني محاسب... المحاسب فيقالدي. دكتور، هل تسمح لي أن أقدم لك ابني؟ المحاسب فيقالدي... الدكتور سبانياني رئيس الشعبة في مكتب الموظفين، قسم التقاعد... تشرّفنا". كان جوفاًني يمثل الدور بنبرة جريئة لا تشمُّ على أي انفعال. ثمَّ جعل يضحك.

"لك مستقبل زاهر، بحق الله. ستبدأ حيث وصلت أنا بعد ثلاثين عاماً من الخدمة. وأنت... مازلت في العشرين من عمرك. الشاب الشاطر يفكر بمستقبله ولا يفكر بأي شيء آخر وليمت الآخرون قهراً وشنقاً".

قال جوفاًني الكلمات الأخيرة وشد بيده على قصبه الصيد كما لو كانت عنقاً يريد الإمساك به لخنقه.

"غداً سيتغير كل شيء. مع أول معاش سنغيّر التلفزيون وستستطيع تغيير السيارة. الفيات القديمة أصبحت على حافة قبرها".

"يجب أن تفكر بنفسك"، قال الأب وقد ترَّبَع على قمة حكمته:
"في هذه الدنيا إن سرحت لحظة غدروا بك وطمعوك من خلفك. لا تتردَّد
أبدًا. سر دائمًا إلى الأمام. لا تلتفت وراءك. أنا وأمك قانعان بما نحن فيه
وسعيديان بأننا استطعنا أن نجعل ولدنا الوحيد يصبح محاسبًا. كلُّ ما نريد
هو أن نموت بسلام وضميرنا مرتاح".

اعتدل ماريو جالسًا ونظر الى أبيه نظرة الرجل المقدم، لكنه في
حقيقة الأمر كان منفعلًا، وكادت الدمعة تطفر من عينه.
ألقي جوفاًني نظرة خاطفة على ولده ثم رتب على كتفه وقد ارتسمت
على شفثيه نصف ابتسامة.

أخيراً علقت سمكة بالصنارة فغاصت عوامة الفلين الحمراء فجأة
في مياه البركة الراكدة. قفز الأب والابن واقفين وقد اعترتهما رجفة
الانفعال.

"أخيراً!"، قال جوفاًني بصوت خافت كي يخفي انفعاله.
أما ماريو فلم يخفِ انفعاله بالمرّة وبدأ يطرقع أصابعه ويتفازر على
قدميه.

كانت سمكة طولها شبر رأسها صغير منفرج وفمها الواسع مليء
بالأسنان حتّى في حلقها وعلى لسانها. قفزت السمكة من على سطح الماء
وبدت كأنها تطير نحو السماء لكنها سرعان ما هوت على حشائش الشاطئ
اللزجة. وفي لحظة أمسكت بها أربع أيدي محاربة متلهّفة ورمتها بعيدًا عن
الشاطئ وبعيدًا عن مياه البركة. أمسك جوفاًني بيديه السمكة المجنونة وشدَّ
عليها بأقصى ما يستطيع من قوة.

"حجر"، صرخ جوفاًني ملتفتًا نحو ابنه: "اعطني حجرًا".
التقط ماريو حجرًا وأعطاه لأبيه. وضع الأب السمكة المتفازرة على
صخرة في الأرض وبدأ يهوي بالحجر على رأسها. كسا الدم الحجر لكن

كان للسمكة سبع أرواح. ظنَّ جوفائي أنَّ السمكة قد ماتت، لكنَّ ذنبها تحرك وتلوى فهوى عليها مجدداً بحجره المدبب مرّات ومرّات.

أخيراً ماتت السمكة.

سأل ماريو: "هل ماتت؟"

أجاب جوفائي: "ماتت!"

كان الشصُّ ما يزال عالقاً في معدة السمكة لا يتحرك وجوفائي يشدّ ويشدّ لكن الشصُّ لا يتحرك.

"في الواقع إنك لست صياداً محترفاً"، قال ماريو وقد علت ابتسامة على شفتيه اللتين كانتا تبدوان مغطّأتين بطبقة خفيفة من الوبر من جرّاء لونهما الأسمر الغريب.

"سأتعلّم"، قال الأب العجوز واستطاع بشدّة قوية أن يسحب الشصُّ من جسم السمكة. لكنَّ مع الشصِّ خرجت المعدة والأحشاء كلها.
"والآن بعد أن قطعنا الرأس وأزلنا الأحشاء لا يبقى إلا أن نطبخها"، قال جوفائي بصوت صارم.

توقفت الفيات أمام كوخ خشبي غير بعيد عن البركة. كان الريف يمتد حول الكوخ نحو الأفق متصلاً بسماء مكفهرة. كان الأب والابن معتادين علي تمضية نهار الأحد في المدينة. أما في الريف فقد اجتاحتها أحاسيس وانفعالات غريبة. لم يكن هناك شيء يشير إلى أنّ اليوم عطلة لكنّهما كانا يعلمان أنّه نهار أحد.

"لا يبدو أي شيء، لا أحد ولا يوم عمل".

لم يكن جمال الطبيعة موجوداً بحد ذاته بالنسبة للثنتين. ففي تلك الساعة في يوم اعتادا أن يقضياه في أماكن معتادة ومعروفة وجدا نفسيهما أمام مشهد غير مألوف مأهول بمخاطر خارجة عن منطقتهم. لعلهما حاولا

أن يستسمحا البيئة المحيطة بهما وأن يصادقاها وأن يطلبها مغفرتها لذنوب ما قد ارتكباها فاكشفنا زرقة السماء الرائعة والنسمات الرقيقة ورائحة الأرض العاطرة وسكينة الطبيعة وسلامها.

أوقفا السيارة خلف الكوخ وأتجها والسمكة نحو المدخل.

أخرج جوفاًني من جيبه نصف كيلو من المفاتيح وفتح الباب بعد أن أدار المفتاح في القفل عشر دورات.

فُتحت النوافذ فانسلَّ نور أخضر باهت وأضاء حجرة واسعة مليئة بالكراسي والأثاث المهشَّم وعجلات سيارة قديمة وكل ما يخطر على البال من النفايات.

أتجّه جوفاًني فوراً نحو المبولة خلف ستار لم يكن إلا غطاء سرير قذر تُبئت أطرافه بالمسامير على جوانب خزانة مكسورة.

أما ماريو فقد ألقى بنفسه على سرير يعلوه الصدأ وضعت عليه فرشاة رطبة ظهرت عليها بقع العفن. ألقى نظرة على جثة السمكة التي ألقاها أبوه على كرسي ثمَّ نظر إلى الساعة المعلقة على الحائط وهي تعمل بانتظام تام.

اقترب جوفاًني من الساعة وهو يزُرُّ سرواله وأنزلها عن الحائط ثمَّ أخرج من جيبه بطاريتين صغيرتين استبدل بهما البطاريتين القديمتين.

"متى ستُحال إلى التقاعد يا أبي؟"، سأل ماريو أباه.

"لم يبقَ إلا القليل. الإضبارة على طاولة مكتبي وفيها كل الأوراق الثبوتية جاهزة. كل شيء حسب الأصول".

"كم ستأخذ بدل نهاية العمل؟"

"لا أعرف بالضبط. هناك مطالبة بالزيادة. إذا صدر القانون الجديد قبل أن أترك العمل فسأخذ أكثر قليلاً".

"وهل المبلغ يكفي لتحويل هذا الكوخ إلى بيت؟"

"أمل أن أحولَه إلى بيت كما يجب أن يكون، إلى بيت صغير لكنه نظيف ومريح".

"هل تظن أن أمي ستحب أن تأتي لتعيش هنا؟"

"أقسم بالله أنني سأحضرها بالقوة وبالركل على قفاها".

"إذا أردت يا أبي أستطيع أن أساعدك. ماذا سأفعل براتبتي كله؟ وأنا شاب ولن أتزوج غداً".

"لا، هذا بيتي، بيتي أنا. تعبت كل العمر كي أعمّره. هذا بالنسبة لي تحدٍ يجب أن أواجهه وأنتصر عليه. لقد قلت لك يجب أن توظّف نقودك. أن تجعلها تتكاثر، أنت تعرف هذه الأمور، ضعها في البنك. اشترِ أسهم شركات مأمونة، أو سندات الدولة. فكّر أن تشتري بيتاً في روما. المنزل في روما استثمار مضمون. عندما تملك بيتاً فلن تخاف من التضخم ولا من أي شيء".

تحدّثاً طويلاً عن الحال وعن كيف تتكوّن العائلة بالتعب والتضحيات.

أشعلا النار في جارور خزانة قديمة كي يشوي السمكة.

نام جوفائني بعد الغذاء حوالي ساعة بينما كان ماريو يتمشّي خارج الكوخ.

وصل فيثالدي جوفائني وفيثالدي ماريو الى الطريق المعبّد بعد أن سارت بهما السيّارة العتيقة على طريق ترابي كانت تتقافز عليه بشكل مخيف.

إن لم يجدا أزمة سير في طريقهما فسيصلان في الوقت المناسب ليشاهدوا مباراة كرة القدم في التلفزيون الساعة سبعة وعشر دقائق.

مرّت الرحلة حتّى مدخل روما بسهولة. قبل كل شيء تجاوزت السيّارة

الإصطبلات ثم البيوت الريفية ثم بعض المنازل السكنية ثم العمارات التي أصبحت أكثر كلما اقتربت السيارة من المدينة.

بدأت روما أمام أعينهما على شكل إشارة مرور حمراء. توقفت السيارة ثم عدت بجرأة وحذر في شوارع المدينة.

تعرّف الاثنان فوراً على يوم الأحد. كانت مصاريع المحلات مغلقة وقد ظهرت عليها بقع الزيت وبوابات العمارات تبدو كأفواه هازئة والسيارات مصطفة على أطراف الأرصفة كأنها كلاب محنطة وعربات الترام فارغة كأنها ديدان كسولة وجلة ثم عمارة هائلة لا نهاية لها تعبر المدينة بكاملها وتتفرع في كل اتجاه كأنها فرشاة شعر تمسّط بها رأس أجرب.

عندما أشعل جهاز التلفزيون كانت مباراة كرة القدم قد بدأت وانبعث منه صوت هائل، صراخ ثمانين ألف مشاهد رؤوا الكرة توقف سرعتها الشديدة عند اصطدامها بالشبكة وراء حارس المرمى.

ظهر المشهد فقد كانوا يعيدون بث دخول الكرة مرّة ثانية. كان الهدف حسب الأصول فعلاً.

دخلت السيدة أماليا فيفالدي الغرفة بوجهها المكفهّر المعتاد ورمت المجلة الشعبية "أخبار المجتمع" على كرسيّ ثم بدأت تمصّ عنق زجاجة مليئة بالماء الدافئ.

"متى ستُصلح البرّاد عوضاً عن أن تحكّ كرشك؟"، همهمت السيدة أماليا وهي على وشك الغرق.

"غداً"، أجاب زوجها دون أن ينظر إليها: "اعلمي لي سندويشة أنا جائع".

"ولي أيضاً"، أضاف ماريو.

"العشاء جاهز"، قالت المرأة قبل أن تختفي في المطبخ.

الساعة السادسة وربع صباح الاثنين رنّ المنبّه على المنضدة بجانب السرير.

"لقد حلمت يا أماليا"، قال جوفائي قبل أن يفتح عينيه لكن زوجته لم تكن بجانبه. كانت قد قامت لِتُعِدَّ القهوة.

ظهر جوفائي على عتبة المطبخ بمنامة القدرة واقترب من زوجته وأمسك بيدها وأدخلها في لباسه.

"تحسّسي!"، قال مبهياً: "ما يزال هناك لحم كثير!"

"روح شيخ!"، نفخت السيدة أماليا في وجهه بعد أن تحسّست هيجانه بشكل روتيني.

وبينما كانت تغسل يدها بكسل كان جوفائي يسرد حلمه باختصار. لماريو طبعًا دور البطولة في الحلم.

كانا على شاطئ البحر وكانت الحرب دائرة على طول الشاطئ بين "كاستل فوزانو" و"أوستيا". وراءهما كان المطبخ وكانت الصلصة تغلي على النار. جاء الكولونيل وقال لماريو: "أنت ضابط وليس طبخ الصلصة من عملك. سيراقيها أبوك أما أنت فاذهب للقتال". وبينما كان جوفائي يحرك الصلصة بملعقة خشبية كي لا تلتصق بالطنجرة وصلته أصداء النصر: "انتصرنا انتصرنا!"

"هل ستستطيع إدخاله إلى الوزارة؟"، سأله السيدة أماليا متشككة بقدراته.

"سأستطيع، أقسم بالله. منذ ثلاثين سنة وأنا أنحت في الصخر في مكاتب الوزارة ويجب أن يسمعوني".

"ولكن يجب أن يتجاوز الامتحان في المسابقة"، قالت المرأة وقد ازدادت شكوكها.

"سينجح، بالتأكيد. سأتكلم اليوم مع الدكتور سباتسياني. لقد أخبرتك

أننا نتكلم سوية بصيغة المخاطب!"
"إن شاء الله"، قالت السيدة أماليا وهي تصب القهوة في الفنجان
الملون والمزخرف برسوم يابانية: "إن شاء الله".

كانت الفيات العتيقة مركونة مواربة على الرصيف أمام محلات
"أوبيم".

جوفائي يجب أن يكون في مكتبه الساعة ثمانية ونصف. الوزارة ليست
بعيدة عن المحطة المركزيّة. جوفائي ساكن في آخر حي "توسكولانو".
لذلك عليه أن يصل أولاً إلى ساحة "سان جوفائي" ومن هناك إلى ساحة
"فيتوريو" ثمّ يحازي محطة سكك "اللاتيوم" ثمّ المحطة المركزيّة وساحة
"اسيدرا" ليجد نفسه أمام الوزارة.

ذلك الصباح لم يكن مثل أيّ صباح آخر. عادةً، فور ما يركب سيارته
يبدأ بالشتائم ولا ينتهي إلا بعد أن يدخل بوابة الوزارة. جوفائي يصرخ في
وجه السائقين وفي وجه المشاة. يضغط على الزمّور بغضب ويوزّع الشتائم
القدرّة على كل من يظنّ أنه سيقطع عليه الطريق أو يعرقل سيره ويلعن البلديّة
وهيئة الشوارع والحكومة وإيطاليا وكل البشرية.

أما في ذلك الصباح فقد كان صامتاً هادئاً وسار في طريقه بانتظام
دون أن يُزمرّ يميناً وشمالاً ودون أن يصرخ بل كان يحترم كل إشارات
المرور.

بالطبع كان السائقون الآخرون يشتمونه وقد مُسخت وجوههم غضباً
فأصبحوا كالقروذ يصرخون في وجهه بكل الصفات المهينة التي يحتوي
عليها قاموس الساعة ثمانية ونصف، وهو قاموس صغير لكنّه كامل حقاً.
أما جوفائي فقد كان قابلاً في كوخه المعدني المتحرك الصغير لا يتنبه
لشيء ولا يلوي على شيء، بل لم يكن موجوداً.

من على يمينه ومن على يساره كانت السيارات الصغيرة تعبر بسرعة السهم يقودها شباب وجوهم كوجوه المجرمين، لا يتورعون عن الصعود على الأرصفة أو السير على خطوط الترام أو السير بسرعة جنونية وقد وضعوا أيديهم على الزمور دون توقّف وكأنهم يحملون جريحًا إلى مستشفى "سان جوفاني".

كان الرجل العجوز حائر الفكر فقد كان يفكّر بابنه وبالعلم الذي حلمه في الليلة الفاتئة وتوارده ذكريات مطلع شبابه.

لم يكن هذا بالشيء الغريب مع أنه لا يعود بفكره عادةً الى تلك الحقبة البعيدة أما الآن فهو يفكّر بمستقبل ابنه فمن الطبيعي أن يشعر أنه معنيّ بالأمر وأن المسألة تخصّه بكل تداعياتها المنطقية أو غير المنطقية.

كان جوفانيّ قد أتى إلى المدينة منذ سنوات بعيدة، قبل الحرب، عندما ترك أرض أبيه الفلاح كي يتطوّر في الجيش الملكي. هكذا تجوّل في إيطاليا وشارك في الحرب ثمّ ترك الجيش وأصبح موظفًا في الوزارة بدرجة (ج).

اليوم هو أب لابن وُلد في المدينة: المحاسب فيفالدي وعمره عشرون سنة. عندما كان شابًا صغيرًا، كان كلُّ ما يلي محطة القطار في قريته غامضًا ومجهولًا.

كان الرحيل مغامرة، سواء أراد أم أبي، لكنه كان مفعّمًا بالأمل فيطفئ كآبته وحينه إلى أرضه وأهله والبيت الذي وُلد فيه. عبرته غصّة في حلقة. الوضع مختلف بالنسبة لماريو فقد ولد في المدينة ولن يشعر بالكآبة أبدًا فكلُّ شيءٍ بمتناول يده: البيت والأهل والمكتب والترفّع في الوظيفة.

شعر جوفانيّ لوهلة بالاعتزاز والفخر دون أن يدرك السبب. لعلّه رغم ضآلته قد ساهم في إيجاد هذا الوضع الممتاز لابنه ولكل رفاق ابنه في المدرسة.

بالطبع. هذا أكيد: لقد مرّت سنوات عديدة وكل هذه السنوات لا تمرّ دون أن تترك أثرًا.

هو نفسه كان فلاحًا فقيرًا معدّمًا واليوم هو موظف في وزارة. في ذلك الصباح أدرك جوفائيّ كما لم يدرك من قبل أنه قد شاخ، لكنّ تقدّمه في العمر لم يذهب هباءً.

ولعلّه لهذا السبب لم يغضب خلال السير ولم يشتّم البلديّة والجمهورية.

هذه ساعة يظهر فيها الرجل - رجل مثل جوفائيّ - على حقيقته وبكل ما قام به في حياته وبدوره في الحياة.

عندما وصل أخيرًا بالقرب من الوزارة بدأ بالبحث عن موقف لسيارته وكانت هذه عمليّة تتطلّب منه كلّ صباح حوالي نصف ساعة.

دار حول المبنى عدة مرّات مارًا بالحرس الواقفين عند مدخل الوزارة وبعد مشادّة عنيفة مع أحد الزملاء استطاع أن يحشر سيّارته في خزق فارغ.

استطاع جوفائيّ أن يخرج من السيارة بعد جهد. أغلق باب السيارة ونظر الى ساعة معلّقة على حائط دكّان صانغ: كانت الساعة الثامنة ونصف تمامًا.

انطلق جوفائيّ راکضًا بكل ما أوتي من عزم بعد أن أطلق شتيمة كبرى.

عند المدخل قطع عليه الحراس الطريق وهزّوا وجوههم الهازنة. اقترب جوفائيّ رويدًا رويدًا من مجموعة من زملائه المتأخّرين الواقفين على طرف البوّابة وقد بان على وجوههم الصفراء الغضب والحنق كما لو كانوا يريدون حرق المدينة برمتها.

جاء آذن يحمل ورقة وقلّمًا وأدخل المتأخّرين المساكين الى حجرة

صغيرة عند المدخل. طلب أسماءهم وطلب من كل واحد منهم اسم المكتب الذي يعمل فيه ثم رفع سماعة الهاتف وبدأ بالاتصال مع رؤساء المكاتب التي يعملون فيها.

هكذا بدؤوا يصعدون إلى مكاتبهم الواحد تلو الآخر.

اتصل الآذن بالدكتور سباتسياني لكنهم أخبروه أنه لم يصل بعد. عندئذ أشار لجوفاني بحركة تدل على كرمه أن يدخل دون أن يسجل اسمه في السجل الأسود.

تجمّع غفر من الموظفين في المصعد الكبير بحجم غرفة. لم يكن للمصعد باب وهو من تلك المصاعد التي لا تتوقف فيجب النزول منه والصعود اليه قفزاً لكنه لحسن الحظ يتحرك صاعداً هابطاً ببطء حذر. قفز جوفاني من المصعد في الطابق الرابع فمشى في دهليز طويل تضيئه هنا وهناك أضواء خافتة.

كان الممر خاوياً لأن كل الموظفين يتجمعون أمام كوة آذن سُمح له أن يحضر القهوة في غرفته الصغيرة حيث يستضيف بترحاب متزايد قبائل كاملة من الصراصير الصغيرة. كانوا يسمونه طوتي على اسم انريكو طوتي لأنه كان مثل كل الأذان تقريباً من جرحى الحرب وله ساق من خشب. لحق جوفاني بالجمع ووقف في الطابور.

لا أحد يستعجل بل الجميع يتمهّل فالكُل يعرف أنه ليس هناك رئيس مكتب يطلب من موظفيه أن يباشروا العمل قبل العاشرة على الأقل. رؤساء المكاتب - وهم فئة مختلفة - يقفون مع بعضهم الى جانب جمهرة الموظفين ولا يثيرون أية متاعب لهم.

مواضيع الأحاديث التي يتبادلها الموظفون وهم بانتظار القهوة هي نفسها التي يسمعا جوفاني منذ ثلاثين عاماً: أخبار الرياضة والسياسة والجرائم والمصائب.

أخبار الجرائم والمصائب هي التي تثير نفوس الزملاء في الوزارة، فالمصيبة حدث استثنائي وان كان يقع كلَّ يوم منذ ثلاثين سنة، ففي كلَّ يوم مذبحه أو شجار عائلي مأساوي أو انهيار سدٍّ من السدود أو ارتكاب جريمة أو انتحار. هذه الأخبار كانت مثار نقاشهم وأحاديثهم.

كلَّ صباح يوجد خبر جديد من هذه الأخبار يثير جدالهم: "بالنسبة لي هو القاتل... لا، أنا أرى أنَّ القاتل هو عشيقها"، وهكذا دواليك.

في نهاية المطاف وقبل أن يعود الموظفون الى مكاتبهم يتفقون على أنَّ إصدار قانون يجيز الحكم بالإعدام سيؤدي إلى وضع حد نهائيٍّ للعنف في هذا العالم!

هذه كانت الوزارة من الداخل في دهاليزها وممراتها وفي حجرات مبناها الضخم، كما يعرفها جوفائي. هناك، في الداخل، لا يحدث شيء ممَّا يحدث خارجها. على سبيل المثال، في "الخارج"، رئيس مكتب له مكانة أعلى من أي موظف، أعلى بكثير.

قليلون يعرفون أنَّ من له وزن في "الداخل" هو واحد من اثنين: إمَّا أنه واحد ممَّن "له ثقافة" أو واحد ممَّن "له معارف" سواء كان رئيس مكتب أو موظفًا بسيطًا أو حاجبًا. "المتكلم" الذي يعرف كيف يتحدَّث يتمتَّع باحترام وتقدير كبيرين وإن كان فقيرًا يحتاج للاستدانة بفائدة باهظة من زميل قد يكون أقل مرتبة منه لكن أحسن تنظيمًا لأمواره. أما أولئك الذين "لهم معارفهم" فيتمتعون باحترام من نوع مختلف أقرب منه إلى الخوف. سيرة أولئك تجري دائمًا على الألسنة فلهم أصدقاء كثيرون في المراكز العليا ولهم أعداء كثيرون في المراكز الدنيا، فهؤلاء عرضة أكثر من غيرهم لغدر أولئك. "المتكلمون" لا يتقنون الكلام فقط بل يعرفون الكتابة أيضًا لذلك هم المفضَّلون لدى رؤساء المكاتب الذين يستخدمونهم كلِّما دعت الحاجة، إن طُلِبَ منهم تقرير غير اعتيادي أو اضطروا إلى إرسال رسالة غير روتينية، فهم غير متدرِّبين كما يقولون عرضًا لموظفيهم المثقفين.

المثقفون: يمكن التعرف عليهم بسهولة فهم يتنقلون بين المكاتب وجريدة "تمبو" أو "المساجيرو" تحت إبطهم أو في جيب الجاكت. يقرؤون الصحيفة وهم يشربون القهوة أو وهم ماشون في الممرات ويحملونها معهم إذا ذهبوا إلى المرحاض وبعد أن يقرؤوها كلُّها ويعيدوا قراءتها يكتبون على حواشيها أرقام حساباتهم أو حساب مصروفات منازلهم أو رؤوس أقلام لمسائل مختلفة.

جوقائني كان يفكر بابه. كان عليه أن يعلمه أشياء كثيرة كقراءة الجريدة أو أن يتكلم بلسان قويم خال من نبرة اللهجة الدارجة مثل مُذيعي الأخبار في التلفزيون وأن يضع دائماً ربطة عنق وأن يعرض أفكاره بلباقة ودون مبالغة، كما يجب عليه أن يعلمه كيف يستحوذ على عطف رؤسائه دون أن يتملّق لهم وعليه أن يعلمه أيضاً كيف يكون ماهراً في عمله.

في الساعة العاشرة تماماً دخل جوقائني مكتبه: غرفة فيها خمس طاولات أربع منها عند زوايا الغرفة والخامسة عند النافذة. جلس في مكانه واختفى خلف ستار من الملفات المكومة بعضها فوق بعض على طاولته تبعث منها رائحة معتادة هي رائحة كريم تلميع الشعر ماركة "لينيتي". طاولات المكاتب الأخرى مُحَمَّلة بأكوام الملفات المماثلة فلا يستطيع الموظفون أن يروا بعضهم البعض بل يسمعون أصواتهم ليس إلا.

لم يمضِ وقت طويل حتّى بدأت "الطاولات" بالحديث مع بعضها بنبرات ولكنات مختلفة. أمّا ما كان يعملهُ كلُّ واحد من الموظفين فهو سرٌّ له وحده فقد يأكل سندويش أو يقرأ الصحيفة أو يكتب أرقام الرهان على مباريات كرة القدم فلا أحد يراه. لكنهم في الواقع كانوا يقومون بواجبهم وإن على مضض فكانوا يسحبون ملفاً من الأكوام الملقاة أمامهم ويفتحونه ويتأكدون من وجود كلِّ الوثائق التي ينصُّ عليها القانون كي يستطيع صاحب الملف أن يدخل عالم المتقاعدين المميّز الواسع.

أمام ناظرِي جوفائِي ملفٌ أصفر اللون كُتِبَ عليه بخطٌ جميل وبأحرف كبيرة كنيته واسمه: فيفالدي جوفائِي. تصفَّح جوفائِي الوثائق المرتبة في الملف ثم أغلقه بمزيج من السرور والحزن.

كان الزملاء في الغرفة ينبحون ويتقيؤون غضبهم على الظلم الذي يعمُّ هذا العالم القذر المليء بالمنايك والشيوعيين والحشاشين والوزراء الفاسدين!

في الساعة الحادية عشرة نزل جوفائِي من الطابق الرابع إلى الطابق الثالث واتَّجه كالقطار إلى مكتب المسابقات وقرع الباب. فتح له بواب أفكح كباقي البوابين.

"أريد نصَّ الإعلان عن المسابقة للدرجة (ب) ... ابني ... كما تعلم"، قال جوفائِي مصطنعاً عدم الاكتراث.

"ابنك؟"، قال البواب مصطنعاً العجب.

"نعم ياعزيزي. المحاسب فيفالدي"، قال جوفائِي ودخل.

ركض البواب خلفه ثم سبقه وأدخل يديه بين رفوف طويلة وتناول من على يمينها ومن على يسارها، بحذق ومهارة، مجموعة من الأوراق. "خذ. هذه هي. لاتعب عتًا كثيرًا"، قال البواب وغمز لجوفائِي بعينه.

خرج جوفائِي دون أن يردَّ تحيَّته.

دخل الى مكتب سباتسياني بكل طلاقة كمن يتحرك في بيته.

"مرحبا دكتور سباتسياني".

"أهلاً جوفائِي. كيف حالك؟"، قال رئيس المكتب ونهض.

"جيد"، قال المرؤوس واتجه نحو رئيسه ماداً كفه لمصافحته وترك

الباب مفتوحاً.

"سأزعجك لحظة فقط بخصوص ماريو... كما تعلم..."

"ابنك؟ المحاسب، أليس كذلك؟"، قال الرئيس وهو يصفحه.

"أريد أن يتقدّم إلى المسابقة. هذا هو الإعلان"، قال جوفائي وهو يجلس. أما الدكتور سباتسياني فقد اضمحلّت كتفاه وذهب على أطراف قدميه ليغلق الباب.

"حسنًا. لنر ماذا نستطيع أن نفعل"، قال الدكتور وهو يعود نحو مكتبه: "أعطني الأوراق، دعني أرى".

مدّ جوفائي يده بالأوراق فتناولها الرئيس وتصفّحها بسرعة.

"ألفا وظيفة واثنا عشر ألف طلب. يا عزيزي جوفائي المسألة ليست سهلة كما تتصوّرها"، قال الرئيس بأسى.

"يجب أن يأخذوه... بعد ثلاثين سنة وأنا أهلك هنا"، قال فيفالدي بنبرة تهديد.

"اسمع يا جوفائي"، قال الرئيس بنبرة أبويّة: "الجميع سواء أمام القانون. أبناؤنا أمام القانون سواء كأبناء سائق التاكسي أو عامل البناء. ماذا نستطيع أن نفعل. القانون هكذا"، قال سباتسياني بأسى متزايد.

"هذا ظلم"، أجاب جوفائي غاضبًا: "لا بدّ أنّ هناك طريقة لنضمن لماريو وظيفة هنا. الوزارة مدينة لي بثلاثين سنة من العرق والجهد بذلته بثمان بخص".

"الوزارة؟"، قال الدكتور مندهشًا: "أي وزارة ووزارة؟ ومن هي هذه الوزارة؟ اسمعني. أنت تعلم أنّي عاملتك جيّدًا وأنا أعرفك منذ زمن طويل، أليس كذلك؟"

"منذ اثنتين وعشرين سنة وأربعة أشهر وثمانية عشر يومًا"، قال جوفائي وعلى شفّيته ابتسامة حزينة.

"إذن صدّقني. أنت تعرف أنه يجب على ابنك أن ينجح بالامتحانات.

الامتحان عبارة عن فحصين، فحص تحريري وفحص شفوي. لأقل لك بكل وضوح، في الفحص الشفوي نحن ندير الأمر ولكن يجب على ابنك أن يدير أمر نفسه بنفسه في الفحص التحريري. اذا نجح في الفحص التحريري فقد سار ثلثي الطريق".

"وان لم ينجح؟"، سأل الأب العجوز وقد اتسعت عيناه.

"يجب أن ينجح"، أصدر الرئيس حكمه، أما جوفائني فقد أحس بلحمه ينفصل عن عظمه ويتهاوى على الكرسي.

"هل تفهم يا جوفائني. الأوراق توضع في ظروف مغلقة ومختومة ولا يُكتب عليها أي شيء. لن يُكتب عليها المحاسب فيقالدي! لا تُفتح الظروف التي تحتوي على أسماء المتسابقين إلا بعد وضع نتيجة الامتحان"، حاول الرئيس إقناعه.

"إذن لا يمكن عمل أي شيء؟"، سأل جوفائني بأسى: "إما أن ينجح بالامتحان التحريري أو يخسر كل شيء. اثنا عشر ألف متسابق كثيرون. هذا صعب".

"هذا ليس كل شيء يا عزيزي جوفائني. بين اثني عشر ألف متسابق يوجد خريجون جامعيون يحاولون الحصول على وظيفة من الفئة (ب) ثم يتقدمون إلى مسابقة داخلية ويرفعون إلى الفئة (أ). هل فهمت الآن؟ هؤلاء أقوياء في الكتابة فكلهم تقريبًا محامون".

رأى جوفائني الغرفة تدور به بسرعة ثم شعر بالعرق يغطي جسمه واصفرَّ وجهه.

انتبه الدكتور سباتسياني لوهن مرؤوسه فاقترب منه ليواسيه. لكن جوفائني استعاد رباطة جأشه فورًا.

"ساعدني يا سباتسياني. بعمرى لم أطلب منك شيئًا، بعد ثلاث وعشرين سنة من المعرفة. لكن الآن يجب أن تعمل شيئًا من أجلي ومن

أجل ابني الذي رأيته عند مولده".

أشعل الدكتور سباتسياني سيكارة وهو يفكر.

هز رأسه مرتين أو ثلاثة ونظر الى جوفاثي مطوَّلاً أكثر من مرّة. كان جوفاثي ينحني إلى الأمام دون أن يشعر حتّى أصبح على حافة الكرسي. وبينما كان على وشك السقوط قال له رئيس المكتب بصوت خافت وقد تعيَّرت ملامحه بعد أن اتَّخذ هيئة صارمة:

"يمكننا القيام بمحاولة... لكنّ المسألة بيدك".

"كيف؟"، سأل جوفاثي وقد أرخى أذنيه.

"هل سمعت عن الماسونيّة؟"، سأله رئيسه وقد علت عينيه مسحة من التصوّف.

"هكذا... بشكل عام"، أجاب جوفاثي.

"حسنًا، عليك أن تصبح ماسونيًا"، أمره رئيس المكتب.

"وكيف؟"، سأله جوفاثي وقد غمره الأمل وعاد الاحمرار إلى

وجنتيه.

"سأعلّمك أنا. خذ. خذ هذه"، ثمّ أخرج من دُرج مقفول فتحه، ثلاثة أو أربعة كتب صغيرة الحجم أغلفتها زرقاء بهتت أطرافها، طبعات قديمة صدرت بعد الحرب بقليل. "اقرأ هذه الكتيبات بعناية ثمّ نتحدث في الموضوع بعدئذٍ. أوصيك بالكتمان. اقرأها ثمّ أعدها لي ولا تدع أحدًا آخر يلمسها.. وإلا طار كل شيء!"

نهض الدكتور سباتسياني من مكانه واقترب من مرؤوسه حتّى كاد يعانقه وفتح جاكيتيه ووضع الكتيبات تحت إبطه التي تنضح بالعرق ثمّ رافقه حتّى الباب: "سنلتقي غدًا. أحضر هذه الأشياء معك".

"طبعًا، طبعًا"، قال الموظف وهو يخرج مندهلاً.

عندما غادر جوفاثي المكتب وركب سيارته ظنّ لوهلة أنّ عمره

عشرون سنة. كان يشعر أنه بخير ومفعم بالطاقة. يستطيع كل شخص إن كان في كامل عافيته أن يشعر أنه ابن عشرين سنة. هكذا كان حال جوفائني، لكن هذا الاحساس دام قليلاً.

أدخل جوفائني غيار السرعة وانطلق بسيارته دون أن ينظر أمامه بل صوّب نظره إلى ساقين جميلتين لفتاة ترتدي الميني جوب.

صفر إطرأء لها فقابلته بتأفف وألحقته بثتيمة قدرة فأجابها بشجأة عميقة.

طيلة بعد الظهر لم يرَ ابنه بل امرأته المتجهمة دائماً والملتصقة دائماً
بزجاجة الماء الفاتر.

"أنتِ تشربين كثيراً"، كان جوفائي يقول لأماليا: "ستنفجرين يوماً ما".
بقي طوال بعد الظهر جالساً وراء الطاولة الفورميكا في المطبخ يقرأ
الكتيّبات التي تبغي أن تشرح له بكلمات وجيزة ما هي الماسونيّة.
عاد ماريو متأخراً فاستقبله أبوه بركلة على قفاه وبتوبيخ أو توبيخين
وبالعديد من النصائح.

كانت أول نصيحة أن يمسك كتبه المدرسية وأن يستعيد ما درسه عن
المحاسبة وعن القانون حيث أنّ الوقت يمر سريعاً ويحين موعد المسابقة
بغمضة عين.

بعد أن أوى ابنه وزوجته إلى فراشيهما عاود الجلوس إلى الطاولة في
المطبخ واستمر في قراءة كتيّباته.

اكتشف متعجباً أنّ العديد من الرجال البارزين من الأموات ومن
الأحياء ماسونيون.

"طوسكانييني؟"، تساءل وقد فغر فاه الذي ازداد اتساعاً وشعر بثقل
في فكّه المتدلي.

في تلك الكتيّبات قرأ أسماء أبطال ومتأمرين ووطنيين من عهد الثورة
والوحدة الإيطالية حتّى اقشعرّ بدنه.

بين الكتيّبات التي قرأها دليل "الماسوني المثالي"، وهو يحتوي
على تعليمات حول كيف يجب أن يتصرّف الماسوني وكيف يستطيع أن

يعرّف على نفسه "للإخوان". من الحيل المتبعة أن يضع يده بشكل عفوي على صدره عند قلبه أو أن يُدخل إصبعه في كمّ الشخص الذي يصفحه ويحتوي الكتيّب على حيل أخرى يستطيع الماسوني أتباعها حسب درجته في السلم.

عدّد درجات السلم ثلاث وثلاثون درجة كعدد سني المسيح. قبل أن يصبح المرء ماسونيًا يُعتبر جاهلاً. هكذا فهم جوفاّني أنه جاهل! لم يكن يتصوّر أنّ العالم منقسم الى فئتين: فئة الجهلة وفئة الإخوان. راوده شعور بالنقص. في كتيّب آخر قرأ مواضيع تتعلق بالأخوة والوطنية والإحسان والأمة. أحسّ جوفاّني بصغره وبصغر مسألة توظيف ابنه ومسابقتها، أمام مثل هذه الأمور العظام. قبل هذه التوافه وفوق كل اعتبار، يجب العمل من أجل الأخوة الإنسانية وإنقاذ الأمة وطهارة الروح! في كتيّب ثالث قرأ شرحًا عن تشكيل المحافل الماسونية وعن طقوس استقبال أخ جديد بما فيها من إشارات تاريخية ورمزية.

أما الكتيّب الرابع فقد أثار اهتمام جوفاّني أكثر من سابقه. يروي الكتيّب وقائع حقيقية وشهادات لبعض الماسونيين. قرأ بنهم كيف استطاع بعض الماسونيين أن يبرزوا في حياتهم المهنية بفضل مساعدة "الإخوان" الذين قد يساعدون "أخيهم" حتّى دون علمه. مثلاً أصبح أحدهم وزيرًا والآخر وزيرًا في الإدارة الإقليمية دون أن يعرف أن أحدًا ما في قمة السلم الماسوني قد أعدّ له الطريق شيئًا فشيئًا وباستمرار. من الأسماء المذكورة اسم بنيتو موسولينى الذي خان من ساعده كما جاء في إحدى الحواشي. تحت الكتيّب الأخير كانت مجلة "الكلمات المتقاطعة" التي يشتريها جوفاّني كلّ أسبوع. تصفّحها حتّى غلبه النعاس. في صباح اليوم التالي مثل جوفاّني أمام الدكتور سباتسيانى ويده ظرف.

"هاهي. أعيد إليك هذه الأغراض"، قال جوفائني لرئيسه وهو يعطيه الكتيبات بحذر.

وضع الدكتور سباتسياني الكتيبات على الطاولة وسأله بنبرة تنم عن الحذر والريبة:

"والآن، ما رأيك؟"

"لا أريد أن أبقى جاهلاً"، قال جوفائني بوضوح وبنبرة صارمة.

"جيد"، قال الرئيس: "إذن، خذ هذه الكتب الأخرى وقرأها"، قال هذا وانحنى ليفتح الدرج المغلق بالمفتاح ويضع فيه الكتب التي أتى بها جوفائني ويُخرج منه رزمة كتيبات أكبر من الأولى مربوطة بحبل. "هذه تحتاج لوقت أطول"، قال له وهو يعطيه إياها: "ستعيدها لي عندما تنتهي من قراءتها".

"ولكن متى ستقيمون لي طقس القبول"، سأل جوفائني بصوت خجول وشكور.

أجاب الدكتور بسلطة سماوية:

"عندما تصبح جاهزاً لطلب النور!"

مرَّ الوقت بسرعة كبيرة حتَّى أنَّ جوفائني أحسَّ، قبل شهر من الموعد مع القدر، أنَّه يعيش اللحظات النهائية من حياة بأكملها.

أما السيِّدة أماليا فقد كانت تنتقل من غرفة لأخرى للاستجابة إلى طلبات زوجها وولدها اللذين اكتشفا فجأة أنَّ لهما منزل.

السيدة أماليا كانت تشعر بالآلام شديدة في قدميها اللتين تراهما تنتفخان يوماً بعد يوم حتَّى قاربنا الانفجار.

جوفائني وماريو يقضيان في الدراسة طوال بعض الظهر جالسين وراء

طاولة المطبخ، هذا من طرف وذلك من الطرف الآخر.
كان جوفائي يستعدُّ لطقوس دخول الماسونيّة وماريو كان يستعدُّ لامتحان المسابقة لدخول الوزارة.

عندما كان أحدهما ينتهي من قوله أنه عطشان يبدأ الآخر وكذلك ما إن انتهى جوع الأول حتّى بدأ جوع الثاني وبرد الأول وحرّ الثاني وهكذا فيما يتعلّق بكلّ احتياجاتهما، والسيدة أماليا تذرّع الدار ذهابًا إيابًا وهي تحمل سندويشة تارة وزجاجة الخمر تارة أو فنجان القهوة تارة أخرى وهي تربرر بصوت منبعث من أحشائها.

في فترات الراحة كانت تهوي على مقعد خيزراني وتضع قدميها على كرسي واطى وتعبّ ليتها من الماء في جوفها وتقرأ مجلة "الأخبار الحقيقية".

كانت السيدة أماليا تهتمُّ بالأحداث السيئة التي تجري في العالم ما عداها. هكذا كانت تجد نوعًا من المواساة تعطي معنى لحياتها الخاملة والتي - على كل حال - لم تضطرب حتّى ذلك الوقت بفعل مصيبة ما.

كانت متشككة بطبعها كما كانت تتمتع بنكران الذات بشكل كبير. تعيش تحت وطأة الخوف من مصيبة ما قد تصيبها أو تصيب عائلتها الصغيرة. وكلّ ساعة تمر دون حدوث أي حدث يعكّر حياتها تحسبها فوزًا لها.

مجلتها المفضلة هي "كرونيكا فيرا" (الأخبار الحقيقية) ولكنها تحب أيضًا "ستوب" (قف) و"جنته" (ناس) و"نوفيليا 2000" (حكاية 2000).

كانت على اقتناع، دون ادراك منها، أن عددًا محدّدًا من المصائب لا بدّ أن تقع كلّ أسبوع، لذا كانت تقرأ هذه المجلات وترى أنّ المصائب قد أصابت غيرها من الناس فتتنفّس الصعداء لأنّها نجت منها هذه المرة أيضًا.

بينما كان الأب يدرس الأرقام القدسيّة في التقاليد الفيثاغورثية الماسونيّة، كان الابن يكتب رؤوس أقلام وملاحظات حول التفسيرات المتعدّدة لموادّ الدستور الجمهوري.

أخيراً جاء يوم الامتحان، امتحان الأب. كان الموعد في الساعة التاسعة ونصف مساءً في قبو أحد المنازل بالقرب من شجيرة اليانسون. ارتدى جوفائيّ البذلة الزرقاء التي يضعها يوم الأحد أو في المناسبات الهامة ثمّ اختار ربطة عنق غامقة بين الربطات القليلة التي لديه ووضعها بعناية. تأبّط رزمة الكتب الماسونيّة بعد أن لفّها بجريدة وربطها بخيط متين وهمّ بالخروج. عند الباب تردّد لحظة ثمّ أغلق الباب واتّجه صوب المرحاض مارّاً أمام عينيّ زوجته المبهمتين.

أغلق باب الحمام بالمفتاح وجلس على كرسيّ المرحاض يفكّر. كان يشعر أنّه بحاجة أن يبقى منفرداً مع الله لحظة. رسم بيده علامة الصليب وتاب إلى ربّه وندم على خطاياهم فلم يكن يستطيع أن يُخفي عن نفسه أو أن يُخفي عن ربّه أنّه قادر على الإدراك والإرادة. فهو يريد أن يدخل إلى المحفل الماسوني وهو يعرف أن الكنيسة ستكفّره دون أن تسأله عمّا فعل ودون علم منه أو منها.

لكنّ إيماناً مطلقاً أعاد له القوّة والأمل وهو الإيمان بأن عين الله أقوى من عين الكنيسة وأنه يرى كلّ شيء ويعرف الظروف التي أدّت به إلى اتّخاذ هذا القرار الذي قد يبدو كفرًا. من ناحية أخرى، المسألة شكلية لا غير، لأنّ الماسونيّة لم تعد تطلب من مرديها أن يتخلّوا عن الكاثوليكية وعبادة "صانع الكون الأعظم" وتعظيم المثلث وبداخله العين أو الفرجار والزاوية وإلى ما هنالك من الرموز. وكل هذه الرموز في نهاية المطاف ليست إلا جزئيّات من الخالق الحقيقي الأوحد: الله، الكاثوليكي، الذي هو نفسه دائماً.

أنهى جوفاًني دعاءه بتصلية أخيرة ثم شدَّ جبل المرحاض وفتح الباب ومشى أمام زوجته وهو يُزرر بنطاله ثم خرج من البيت بالسرعة المعتادة.

لم يكن المحفل بعيداً. عشر دقائق بالسيارة ووصل.

كان الشارع الذي وصل إليه قصيراً وخالياً. بحث عن رقم المبنى فوجد منزلاً صغيراً قديماً بين عمارتين كبيرتين مازالت كل شققها غير مؤجَّرة.

قرع الجرس كما علّمه الدكتور سباتسياني: ثلاث قرعات أولاً، ثم انتظر خمس ثوانٍ، ثم قرعتين، ثم انتظر عشر ثوانٍ وقرع مرّة أخيرة.

فُتح الباب بحركة آلية كما بسحر ساحر. دفع جوفاًني الباب برفق لكنّه لم يرَ أحداً. كان الضوء في مدخل الدرج خافتاً للغاية فوَلَجَ يتحسّس طريقه. بعد أن صعد درجتين أو ثلاث سمع الباب يُغلق خلفه. في نهاية دهليز معتم فُتح باب فبانت حزمة ضوء ارتسمت على ذلك البساط المشعّ وعليه مشى جوفاًني على أطراف أصابعه وقد اضمحلّت نفسه لشدة خجله.

برز أمامه وجه الدكتور سباتسياني العابس.

"ماذا تريد أيها الجاهل؟"، سأله بصوت يحمل التهديد والوعيد.

"النور"، قال جوفاًني بصوت متأرجح بين الحماس والتردد.

"إذن، ادخل!"، أجاب الدكتور سباتسياني وانحى جانباً وقد ارتسمت

على شفّيته ابتسامة غريبة كابتسامة من ارتكب ذنباً.

دخل جوفاًني المحفل وهو يظنُّ أنّه في مكان مقدّس لكنّه وجد نفسه في مكتب هري لصاحب شركة شحن متواضعة.

أجلسه سباتسياني خلف طاولة المكتب وناوله قلمًا ونموذجاً كي يملأه ثم خرج وأغلق عليه الباب بالمفتاح.

كتب جوفاًني بيد مرتعشة المعلومات المطلوبة عادةً: الاسم والكنية

ومكان الولادة وتاريخها والدرجة العلمية والأمراض والعلامات الفارقة والدين. على الصفحة الثانية أسئلة أجاب عليها جوفائي بصعوبة:

ماذا تعني "الحرية" بالنسبة له، ماذا تعني "الأخوة"، ما هو دور الإنسان في العالم، ما هي الأسباب التي تدعوه لطلب "النور"؟

أجاب جوفائي على الأسئلة معتمداً على القليل الذي تعلمه من قراءة الأدبيات الماسونية ومعتمداً على حدسه وهو حدس انسان شريف عادي. على كل حال، كان هناك في أسفل الصفحة حاشية ذكر فيها أنه يمكن تعديل الأجوبة عند إقامة شعائر القبول.

بعد أن كتب جوفائي الصفحتين قرأهما بتمعن لثلا يكون قد ارتكب خطأً نحويًا أو قواعديًا. بعد أن تحقّق من صحة ما كتبه وتحقق من وضع النقاط على الحروف بشكل صحيح وضع القلم على الطاولة وانتظر.

عندما عاد الدكتور سباتسياني إلى الغرفة بدا لجوفائي كأنه الموت بعينه فقد كان يحمل سيفاً بيد وعصا سوداء باليد الأخرى وقد وضع حول رقبته طوقاً من القماش ثلاثي الألوان تدلّت منه قطعة من الحديد ووضعت في صدرية سوداء، كالمسدس في الغمد، عليها رسم لجمجمة تصرّ على أسنانها.

التقط الدكتور سباتسياني الورقة وعرزها بحد السيف دون أن ينبث بنت شفة وكأنه في غيبوبة روحية، ثمّ دار حول الجاهل وعصّب عينيه بالعصا السوداء.

"تعال معي أيها الجاهل"، أمره باحتقار.

خرج الاثنان من المكتب ومشيا في دهليز طويل. كان جوفائي يسير خلف رئيسه وقد وضع يده على كتفه وهويكاد يختنق من الفراغ الناجم عن حلقة الظلام. عندما وصلا أمام باب مغلق دقّ سباتسياني الباب ثلاث مرّات.

جاء صوت من الداخل: "من بالباب؟"

"جاهل يطلب النور"، أجاب سباتسياني بملء فمه.

"إلى السلاح"، سُمع صوت يقول: "يدخل علينا رجل مجهول الهوية"، ثم سمعت قعقعة السيوف وهي تُجرّد من أغمدها. فُتح الباب واقتيد جوفائي داخل المعبد.

في الداخل كان نحو أربعين رجلاً والأقنعة تغطي رؤوسهم ويرتدي الواحد منهم صدريةً مربوطة عند الخصر ويده سيف. كانوا واقفين بمحاذاة ثلاثة من جدران غرفة واسعة تأكلها الرطوبة.

عند الحائط الرابع وُضع ما يشبه المذبح عليه شمعدان ذو سبعة أذرع ونسخة من العهد القديم مفتوحة وعليها فرجار يعلوه الصدا. كان الثالث والثلاثون، أي الرئيس، يقف على قمة سرادق خشبي وبين يديه كتاب الطقوس. مدّ سباتسياني السيف والورقة التي عبّأها جوفائي معلقة بحده. أمر الثالث والثلاثون أحد رعاياه، وهو الحارس الأول، أن يتأكد من شدّ عصاة الجاهل حول رأسه.

تقدّم رجل قصير القامة أعرج واقترب من جوفائي وتفحص عقدة الرباط المشدود على عينيه.

"كل شيء على ما يُرام"، قال الحارس الأول لصاحب الغبطة.

بعد عدّة مقدمات متعارف عليها، بدأ صاحب الغبطة الثالث والثلاثون يقرأ ويعدّد قوانين الماسونية الصارمة: الأخوة، التواطؤ، حب الوطن، الواجبات، الحقوق، الأحكام الشديدة على الخونة.

بعد هذا الدرس الطويل الذي قرأه الرئيس بنفس السرعة التي يقرأ فيها الخوري كتاب الصلوات، بدأ الفصل الثاني من المراسيم: الإجابة على الأسئلة الماسونية.

"ماذا تعني الحرية بالنسبة لك؟"، سأل صاحب الغبطة جوفائي.

لم يفهم جوفائني أنّ السؤال كان موجّهًا له فبقي صامتًا. كان يقف كالدمية والعصاة على عينيّ بين مجموعة من الرجال المقنّعين.

"فيقالدي جوفائني"، صرخ الثالث والثلاثون غاضبًا: "ماذا تعني الحرية بالنسبة لك؟"

انتفض جوفائني وأجاب بما خطر له من كلمات قالها متلعثمًا كما لو أنّه يبحث عن الكلمات في قاموس كبير.

"الحرية، نعم، الحرية بالنسبة لي هي أن أفعل ما أريد. أن أكون حرًا. الحرية، الحرية هي حرية الصحافة وحرية الفكر وكذلك... ماذا أقول؟ الحرية شيء جميل ولكن للأسف الحرية اليوم زائدة عن حدّها!"

قاطعته الثالث والثلاثون: "وما هي الأخوة بالنسبة لك؟"
"الأخوة"، قال جوفائني: "هي حبّ الآخرين وهي الاحترام وكرم المشاعر وهي..."

قاطعته صاحب الغبطة مرّة ثانية: "ماذا يجب عليك أن تقدّم لنفسك وماذا يجب عليك أن تقدّم للأمة؟"

"لا يجب أن أعطي شيئًا لنفسي"، أجاب جوفائني بثقة: "يجب أن أقدم كلّ شيء إلى أمّتي، إلى بلادي، إلى وطني، حياتي كلّها وكلّ ما أقوم به هو للمصلحة المشتركة لشعبي.... قبل نفسي تأتي إيطاليا..."
كاد الحضور أن يصفّقوا لجوفائني.

تأثّر صاحب الغبطة والماسوثيون الآخرون لكلماته ونظروا عبر ثقوب أفئتهم السوداء نحو الدكتور سباتسياني بنظرات تنمّ عن الرضى والتهنئة.

"هل تعلم أيها الجاهل كم اختبارًا صعبًا يجب أن تتجاوزه كي تصل إلى النور؟"، سأل صاحب الغبطة جوفائني.

"أنا على استعداد لمواجهة أيّ اختبار"، أجاب جوفائني بشجاعة وكبرياء.

"الاختبارات ثلاثة"، قال الرئيس بلهجة روتينية: "اختبار النار واختبار الدم واختبار الموت. هل أنت على استعداد لخوضها؟"
"أنا مستعد جسداً وروحاً"، أجاب جوفائني وقد تذكر الإجابة الصحيحة التي قرأها قبل أيام في تلك الكتيبات.
"إذن، فلنباشر!"، أمر صاحب الغبطة موجهاً كلامه للحارس الثاني.
اقرب الحارس الثاني من جوفائني وهمس في أذنه ولكنه تمّ بوضوح أنه من أهل روما:

"لا تخف... المسألة رمزية فقط".

أخرج من جيبه قداحة وبعد ثلاث محاولات باءت بالفشل استطاع أن يشعلها وقرب اللهب من جوفائني وأطفأها بسرعة.
لم يشعر جوفائني بأي شيء.

"يا صاحب الغبطة الثالث والثلاثين"، قال الحارس الثاني مخاطباً الرئيس: "لقد تجاوز المرید الاختبار الأول بامتياز".

"فلنباشر الاختبار الثاني"، أمر الثالث والثلاثون من فوق سُراده.
وضع الحارس الثاني رأس السيف على بطن جوفائني ودفعه دفعة خفيفة. لم يتحرك جوفائني قيد أنملة.

"يا صاحب الغبطة الثالث والثلاثين"، قال الحارس الثاني: "لقد تجاوز المرید الاختبار الثاني بامتياز".
"فلنباشر بالاختبار الثالث".

الاختبار الثالث هو اختبار الموت. على جوفائني أن يثبت استعدادة للتضحية بنفسه إذا طلبت منه السلطات الماسونية ذلك. وحيث أن الشعائر رمزية فعوضاً عن أن يشرب سماً مقرفاً وقاتلاً كان عليه أن يشرب كأساً من الكونياك.

وفعلًا صبَّ الحارس الثاني قليلاً من الكونياك في كأس صغير وضعه بيد جوفائني.

"اشرب!"، أمره بحزم.

شرب جوفائني ما في الكأس جرعة واحدة.

"يا صاحب الغبطة الثالث والثلاثين"، قال الحارس الثاني: "لقد تجاوز المرید الاختبار الأخير أيضًا بامتياز".

بدأ الفصل الثالث والأخير من المراسيم. أثنى المعلم الكبير على شجاعة الأخ المرید ثم بدأ يتلو وصايا الأبوية ويعيد المرّة تلو الأخرى أن الأخ الماسوني أهمُّ من الأخ ابن الأب والأم وأنَّ كلَّ شيءٍ يطلبه حقُّ له وعلى الأخ الماسوني أن يلبّي له طلبه، والى آخره من هذا الكلام.

فكَّر جوفائني بابنه وبمستقبل عمله في الوزارة وكذلك بمراسم قبوله في المحفل الماسوني! لم لا؟ إنَّه محاسب، إنسان مثقف، شاطر، درس كثيرًا. بالتأكيد لو كان الآن مكانه لقام بدوره خير قيام.

"كلُّ شيءٍ يُعطى للأخ الماسوني وكلُّ شيءٍ يُطلب منه"، ولكن ماذا يستطيع أن يقدم جوفائني؟ لا شيء. لكنه يريد أن يطلب الكثير. ولماذا اختاروه هو بالذات كي يحظى بهذا الشرف الكبير وهو الذي لا يستطيع أن يقدم شيئًا للإخوان بل يطلب منهم الكثير؟ غدا الدكتور سباتسياني في قلب جوفائني صديقًا مخلصًا، واحدًا من أولئك الأصدقاء المخلصين الذين تلجأ إليهم عند الشدائد فيمنحونك صداقتهم العميقة دون مقابل.

أدرك جوفائني فجأة أنه احتفظ لسنوات طويلة بجوهرة فريدة وليس بصديق فحسب وإنما بمرجع أكيد وحقيقة ثابتة.

"يجب أن أقدم له هدية فاخرة... أو لزوجته... مثلاً صندوق مشروبات"، فكَّر جوفائني بينما كان المعلم الكبير يأمره بتقبيل العهد القديم وأن يقسم يمين الولاء الكامل للماسونيّة.

قدّم له الحارس الأول الكتاب المقدّس فقبّله جوفائني. ثمّ نهض المعلم الكبير واقفاً وقرأ عليه نصّ القسّم.

أعاد جوفائني ما تلي عليه كلمة كلمة وهو يرحف لانفعاله.

"أقسم أن أكون وفيّاً للماسونيّة العالميّة حسب الشعائر الاسكوتلنديّة العتيقة المقبولة".

"فلتطفأ الأضواء"، أمر صاحب الغبطة.

ذهب الحارس الأول نحو زر القاطع وعمّ الظلام الغرفة. لم يبق سوى شمعة مشتعلة في ركن من الأركان منحنية كالشحاذ.

اقترب الحارس الثاني من جوفائني وأزال العصا عن عينيه.

لم يتغير المشهد أمام ناظري جوفائني فقد رأى ما كان يراه وعيناه مغمضتان أي ظلاماً أسود تتفجّر فيه ألوان قاتمة.

" ما زلت تستطيع أن تتراجع. هل مازلت تريد النور؟ انتبه، فلن نستطيع التراجع بعد ذلك!"، تبّه الثالث والثلاثون بصوت جنائزي.

"أريد النور"، قال جوفائني بقوة.

أشعل الضوء فجأة فشعر جوفائني أنّه في فخ من حوله أناس مقنّعون، بأيديهم السيوف وعلى صدورهم المرايل وصاحب الغبطة المعلم الكبير الثالث والثلاثون واقف في سرادقه العالي وعلى رأسه القناع وعلى الجدران كتابات باليونانية واللاتينية، وصانع الكون الأعظم بعينه المضيئة في المثلث مواجه للسرادق المجلّل بستار أحمر وأسود.

بدا له كل شيء كالحلم، كحلم غريب مضطرب. أدار ناظريه بحثاً عن الدكتور سباتسياني دون أن يدرك ذلك لكنّه لم يستطع أن يعثر عليه فهو واحدٌ من أولئك المقنّعين، إنّهم وبينهم ولعله في آخر القاعة وراء الآخرين وعلى رأسه قناع أسود.

حدّره المعلم الكبير مرّة أخرى أنّه مازال يستطيع أن يتراجع إن شاء

وإلا فلن يكون بمقدوره التراجع بعد ذلك. تريث جوفائني برهة. لم يتردد
ولكنه أحس بضيق في صدره فلم يستطع أن ينبث ببنت شفة.
أخيراً استطاع أن يحرك شفثيه فخرجت الكلمات من فمه بقوتها
الكامنة.

"أريد النور".

عند ذلك خلع الحاضرون الأقنعة عن وجوههم فبانت أشكالها
المختلفة، فهاهم من كل الأعمار وكل المقاييس وكل الأحجام.
إحمر وجه جوفائني ونظر، كما تنظر الدجاجة، بعين واحدة ثم
بالأخرى إلى تلك الأشكال من خلال بريق بؤبؤي عينيه اللتين عادتا إلى
الواقع.

"طوتي!"، هتف جوفائني وكادت عيناه تدمعان عندما تعرّف على
بواب مكتبه بين الحضور،

"طوتي. هذا أنت... كم أنا سعيد بك"، وذهب يعانقه، ثم:

"جوفائني... وأنت أيضاً؟ وبرويتي... وروسي... وأركاري... أنتم
كلكم هنا!"

اقترب منه أحد الزملاء وقبله وقال له: "انظر، انظر يا أخي من هنا،
خمن!"

تقدّم ماريانيني الموظف المثقف الذي يحمل صحيفة "تمبو" تحت
إبطه.

"ماريانيني... حضرتك أيضاً هنا... كل الطابق الرابع هنا!"

جاء ماريانيني بهيئته الجليلة وربت على كتفه: "عزيزي فيثالدي: لا
يوجد كلفة بين الأخوة خاطبني باسمي، جُوزبّه".

"جوزبّه"، قال جوفائني في سرّه وكاد أن يُغمى عليه.

قرع الثالث والثلاثون جرسه بقوة وأمر بالهدوء، ثم أمر جوفائي بأن يستلقي على الأرض إجلالاً له.

انبطح جوفائي على الأرض بهمة الشباب وقبلها ثلاث مرّات.

ثمّ قام على ركبتيه فاقترب منه الدكتور سياتسياني: "الآن أنت في الدرجة الأولى وأتمنى لك ترقية سريعة"، قال له أصدق أصدقائه.

"شكراً، شكراً، شكراً"، ردّد جوفائي وقد علا صوت أنفاسه.

نزل المعلم الكبير من منبره ووضع سيفه الثمين على رأس الماسوني الجديد ثمّ على كتفيه وسمّاه أخاً في المحفل الماسوني القائم بالشعائر الأسكوتلندية الذي يحمل اسم الرائع الماجد الجليل أرتورو طوسكانييني.

"طوسكانييني... ردّد جوفائي وهو يغني في نفسه مقطعاً من أوبريت "ترافياتا" دون أن يتذكّر كلماتها.

قبل رفع الجلسة مرّ "المتصدّق الأعظم" بين الحضور ليجمع صدقاتهم. يجب على كل واحد منهم أن يضع يده داخل الكيس المخملي الأسود الذي يحمله "المتصدّق" ولكنهم ليسوا مجبرين على أن يضعوا فيه النقود.

نهض جوفائي ووضع يده في جيبه وتحسس بأنامله النقود وعدّها منها خمسة وثلاثين ليراً أمسكها بقبضته وعندما توقّف المتصدّق أمامه أدخل يده في الجوف الأسود وترك صدقته فيه.

وصل كيس الصدقة إلى نهاية مطافه تحت ناظرّي الثالث والثلاثين. أفرغ المعلم الكبير الكيس وعدّد النقود بصوت عالٍ.

في ذلك المساء جمع المحفل ثلاثة آلاف ومئة وخمسة وعشرين ليراً وتذكّرة ترام وحفنة تبغ.

نظر المعلم الكبير إلى المجتمعين نظرة غاضبة ولم يقل شيئاً. نظر الإخوان بعضهم إلى بعض يعاتب الواحد منهم أخيه بنظره.

ثم أمر المعلم الكبير بإشارة صارمة لكنها أخوية أن يقوم الخطيب بخطابه للترحيب بالأخ الجديد.

"الماسونيّة كالمسيحية"، قال فجأة رجل قصير القامة ذو نظارتين على عينيه وقد قام واقفاً ووضع يده في جيبه: "عقيدة عالميّة تروم خير البشريّة. لقد فقدت المسيحية عبر العصور صفاءها الأصيل كما كان في الأفكار والفضائل الإنجيليّة. أما الماسونيّة فهي لا تزال سائرة على الدرب الأصيل تقوم بالفضائل والحريّات من خلال الحياة الدووية للأخوة. تمتاز عقيدتها بأفكار فلسفيّة وقيم معنويّة عالية تكاثفت بعد صعود النزعة الإنسانيّة وثبوت الأفكار المدنيّة كأفكار دانتى التي تتحقّق بالتآخي التلقائي وتحيا اليوم بقاء الأخوة بين الرجال "ذوي الأخلاق الحميدة" ولها دور روحي واجتماعي إذ تتكاتف قوة المعرفة مع الخير الأخوي فيولد من تكاتفهما قوة معنويّة تؤثر تأثيراً كبيراً في تقدم الحياة الاجتماعيّة والسياسة العالميّة وذلك بفعل التجاذب الذي استخلص منه سبنسر قواعد نظامه الفلسفي: التطور".

كان الجميع يستمع وقد طالعت أعناقهم كأنما علقت بحبل معلق بالسقف.

"في الماسونيّة كلُّ شعور بالضعف حبن وكلّ تجرّب جريمة، فهي ترفض العنف ولا تقبل بالفوضى لأنّها تؤيد القانون وتبغي العدل وتتطلع نحو الكمال. إن ما يرمز إليه الفرجار في هذا المعنى واضح: فهو يعتبر القانون الاشتراعي كمركز ثابت هندسيّاً تزداد عنده الزاوية أو تتناقص لحساب المساحة المرادة زيادةً أو نقصاناً مشيراً بذلك إلى أنّ المساواة تعني تطبيقاً متوازياً لأداة المساواة أي القانون وليست "خليطاً معجوناً بما هبّ ودبّ" بالمعنى المطلق حيث أنّه يجب ضمان توازن الأداة الاشتراعية بشكل متساوٍ عند تطبيقها على ما قلّ كما يجري على ما كثر.

لذا فإن المساواة في الماسونيّة لها معنى مخالف تمام الاختلاف عن معناها في الشيوعيّة: لكلّ فرد واجباته وحقوقه لما يملكه فالحقوق

والواجبات عندما تتلاءم في معاييرها الطبيعية تؤدي إلى التقدّم الجمعي. المساواة ليست قيمة مطلقة وتصيب الماسونية كما تصيب الكنيسة الكاثوليكية إذ تؤمن بوحداية الفرد".

كان الحضور يستمعون للخطيب كما يستمع المؤمنون للخورى في الكنيسة. كانوا يسمّون ذلك الرجل الصغير ذا النظارات "الأستاذ" فهو المثقّف، يرتدي القميص ولا يضع العيدان في قبته وكوعى كمى سترته مهترآن وشعره الناعم يبدو لزجًا على جبهته.

في الماسونية، كما في كل بيئة، رجال أذكيا ذو ثقافة عالية لكنهم غير قادرين على تناول المسائل العملية فتراهم دائمًا في الصفّ الثاني وعلى وجوههم سمات المرأين الذين يتمسّحون بأذيال أسيادهم وهم بعيدون عن ذلك في حقيقة أمرهم، وكثيرًا ما تنبعث منهم روائح كريهة كما لو أنّ الماء بالنسبة لهم شيء منحطّ ككلّ شيء في الحياة الدنيا. رجل كهذا قرأ كثيرًا ويعرف اللاتينية وقد يعرف اليونانية كذلك ويفهم الفلسفة وأشياء أخرى كثيرة لا يفهمها إلا القلائل، كان الجميع يحسده ولكن لا يريد أحد أن يكون مكانه.

كانوا يسمعون بانتباه واجب ويحاولون متابعة كلامه المعقّد دون أن ينظروا إليه فهم في الواقع قد جعلوا منه مكبر صوت ينبعث الصوت منه عن طريق صمامات وأسلاك كهربية معقدة ومن الأفضل التعامل معه بحذر فقد يؤدّي لمسه إلى صدمة كهربائية.

"أفلاطون"، انفجر الأستاذ بعد أن شرب نصف كوب ماء: "أفلاطون الذي كان مهتمًا بمصير الجنس البشري يقول في "نظرية الدولة" إنّ البشر سيعيشون سعداء لو حكمتهم الفلاسفة أو أناس على اطلاع على الفلسفة. وقد أشار في مضمون كلامه إلى مخاطر "التجريبية".

لم يكن لأفلاطون بالطبع أن يتنبأ بكلّ تطوّراتها المساوية وها هو الوباء يصل إلينا مع كل العقائد المبهمّة التي تشكّل عدوانًا على العقل والمنطق

وعلى التقدّم البشري وعلى الحكمة التي هي أساس الفكر الماسوني.
لهذا نحن نمقت صنّاع النظريات الوهميّة الذين يحقّرون الوطن
ويعدّون الرعاع بوعود لا يمكن تحقيقها فيشوّشون أفكارهم".

هنا أشار الخطيب بسبّابه نحو جوفائني مُحذّرًا: "أيها الأخ، اقترب
منتصف الليل وعند منتصف النهار بدأنا العمل..."

نظر جوفائني تلقائيًا إلى الساعة لكن الحضور ابتسموا باحتقار
تفاوتت درجته من واحد لآخر، ثم همس له أحدهم من خلفه: "هذا رمز
ليس إلا..."

تذكّر جوفائني حكاية "منتصف الليل ومنتصف النهار" التي قرأ عنها
في أحد كتيّبات الدكتور سياتسياني فاحمرّ وجهه. أمّا الخطيب فعلى الرغم
من رفعة المعنوية فقد أبدى تسامحًا كبيرًا وارتسمت على شفثيه ابتسامة
لطيفة ثمّ تابع خطبته.

"أيها الأخ: عمرك الآن ثلاث سنوات، ثلاث سنوات ماسونيّة. أنت
الآن في الدرجة الأولى، درجة العمارين الأحرار ونحن اليوم نستقبلك كما
تستقبل العائلة الحنون المولود الجديد.

والأمنية الوحيدة التي نتمناها لك هو أن تترقى في مسيرتك الماسونيّة،
والنصيحة الوحيدة التي نقدّمها لك هي أن تقوم بواجبات الأخوة.
الماسونيّة نور غير ملموس وإذ يشعّ من الشيء الذي تنظر إليه يبدو لك
أكثر جمالاً ويجعل من الحقيقة أكثر كمالاً نظرًا لوجود عامل إضافي فيه
هو الفضيلة".

سُمع في القاعة دوي تصفيق غريب فقد كان الماسونيّون يصفقون
براحات أيديهم دون أن تلتقي أصابعهم. كان جوفائني قد قرأ هذا أيضًا
لكنه لم يتذكّره.

أعلن الثالث والثلاثون الجليل عن رفع الجلسة وبدأ الجميع بخلع

المرابيل وباقي العدة. أحسن جوفاًني التصرف وتلقى التهنة من المعلم الكبير شخصياً ومن الأستاذ ومن الحراس وقد خلعوا جميعهم بزاتهم والكل يناديه يا أخ من هنا ويا أخ من هناك. لقد أصبح جوفاًني واحداً منهم. لقد وارى جهله إلى الأبد.

لكن كان هناك شيء يزعج روح جوفاًني: لماذا لم يفكر سابقاً بالانضمام إلى الماسونية؟ لو انتبه لما كان يجري حوله لانضم إليها قبل ذلك كباقي الزملاء والإخوان الذين يحيطونه بحبهم الآن.

ثلاث سنوات. عمره ثلاث سنوات الآن وهو في هذا العمر! هل سيستطيع الترقى وقد بدأ متأخراً؟ من الأفضل أن يدع الأوهام جانباً. يكفي أنه الآن بين أصدقاء يغمرونه بعطفهم وعلى استعداد لمساعدة ابنه.

نعم، ماريو، ابنه. راودته أمنية أن يضمه إلى المحفل ولكن عليه أن يكتسب قليلاً من التجربة قبل ذلك كي يستطيع التحرك بحرية أكبر.

بعد أن انتهت مراسيم الانضمام جاء دور "عشاء المحبة"، حسب البرنامج: عشاء خفيف عبارة عن صحن معكرونة وكثير من الخمر.

بينما كان الماسونيون يُعدّدون من سيذهب إلى العشاء. اقترب من جوفاًني شابٌ عليه أسمال كأسمال النور وأخذه جانباً مما أثار فضول جوفاًني فتبعه.

"اسمع يا أخ، أنا آسف لإزعاجك. لو لم يكن الأمر هاماً لما أزعجتك الآن. أنا رسام ولم أعمل منذ ثلاثة أشهر. زوجتي حامل وجائعة إلى درجة أنها بدأت تأكل أثاث المنزل. هل معك ألف لير؟"

أزاح جوفاًني نفسه بشكل عفوي وحاول الابتعاد كأن أحدًا يناديه، لكن الشاب تعقّبهُ ولم يتركه بل كان يمسك بتلابيه من هنا ومن هناك بينما كان جوفاًني بين زملائه يعانق هذا ويقبل ذلك وكأنه طفل يوم قربانه الأول.

"مبروك يا فيفالدي. أمنياتي الحارّة. أنا سعيد لوجودك معنا. وابنك؟
كيف حاله؟ ماذا يعمل؟ وكيف حال زوجتك؟ هل هي بخير؟"
"قل لي"، ما زال الشاب يصرُّ وهو ممسك بمرفق جوفاّني: "هل
ستعطيني الألف لير أم لا؟"

بدأ الناس بالخروج واجتمعوا أمام المدخل.
تخلّص جوفاّني من النوري بأن شدَّ مرفقه ثم انضمَّ إلى الآخرين
واقترب من الدكتور سباتسياني:
"شكرًا. شكرًا سباتسياني، شكرًا".

نسي جوفاّني السائل الذي ما زال ملتصقًا به كمصاص الدماء ولم
يعرف كيف يزن كلماته وهو يشكر الرجل الذي أحسن إليه فقد ودَّ أن يقبل
يديه لكنّه لم يفعل، وودَّ أن يعانقه وأن يشدّه إليه ولم يفعل، بل اكتفى بوضع
يده على كتفه كي لا يهرب منه. اشتهم رائحة كريم الشعر ماركة لينيتي التي
تقوح من رأس رئيس المكتب، رائحة الملفات التي تتراكم على طاولته كلّ
يوم، لقد صاحبت تلك الرائحة طوال سنوات عمله المتّزنة في الوزارة في
مكتب التقاعد.

كل شيء في ذلك المحفل كان معتادًا بالنسبة له وكأنّه أعدّه له خصيصًا،
كأنّه فضّل على مقاسه، كأنّه وجد هكذا كي لا يشعر بالغرابة. بما في ذلك
رائحة كريم الشعر لرئيس المكتب. هنا يستطيع أن يجد مواساة الأصدقاء
وقوّة منطقي لا يحيد عن مساره يرمي إلى تصحيح الأفكار وإقامة العدل.
كان جوفاّني يشعر بكل هذه المشاعر ويغمره إحساس عميق بالراحة
وبطهارة النفس.

أصبح الشاب أكثر إلحاحًا. أمسك بذراع جوفاّني وسحبه بعيدًا. شعر
جوفاني بالغضب يجتاحه وارتسم على وجهه خط قطعته نصفين كثنية في
قناع من الورق المقوّى أعيد فرده بعد طيّه.

"اسمع أيها الأخ. لقد قلت لك إنني بحاجة الى نقود. أعطني ألف لير"، أمره الشاب بوجه عابس.

نظر جوفاًني إلى ذلك الشحاذ نظرة متعالية وقال له بنبرة قسيس:
"ما عندي".

انفجر الشاب صاخباً متراقصاً صارخاً بأعلى صوته:

"لا يريد أن يعطيني ألف لير، أيها الإخوان، أيها الإخوان..."

عاد كل الذين خرجوا وتحلقوا حول جوفاًني والشاب.

"لقد قلت له إن زوجتي حامل وإنني بدون عمل منذ عدّة أشهر وإنني بحاجة إلى نقود وهو لا يريد أن يعطيني ألف لير طلبتها منه. ما هذا الأخ؟"

نظر الثالث والثلاثون والحراس والمتصدّق والخطيب والدكتور سباتسياني نظرة غير معبّرة وساد هدوء يحمل في طياته النذير.
احمرّ جوفاًني احمرار من قد يشتعل بين لحظة وأخرى ولم يخرج من بين شفثيه الملتويتين أي نفس.

تابع الشاب دون رحمة: "الاختبار الحقيقي لم يتجاوزه. اختبارات المراسيم كلها رمزيّة أما هذا الاختبار، اختبار ألف لير حقير فلم يتجاوزه. طبعاً من السهل شرب كأس من الكونياك بدلاً من السمّ ولكنّ أخانا هذا يصعب عليه مساعدة أخ بحاجة إلى ألف لير".

شعر جوفاًني بوهن شديد وأحسّ بالرغبة في خنق هذا المتسوّل القذر الذي فضحه أمام زملائه ورؤسائه. لقد ودّ أن يخنقه أمام الجميع فوراً.

"ما عندي"، هذا كل ما استطاع أن يقوله جوفاًني وكاد أن يتقيأ: "لقد خرجت من البيت بسرعة ونسيت المحفظة. إذا جاء السيد معي إلى البيت فسأمنحه أكثر من ألف لير. سأعطيه ألفي لير".

كان الجميع ينظرون إليه دون أن يسمعوا ما يقوله.

"سأعطيه ألفين وخمسمئة لير بل ثلاثة آلاف"، زاد في المبلغ وسط صمت قاتل.

ارتدى الشاب على جوفائني فجأة وبسرعة خاطفة أخرج من جيب جاكيتة الداخلي المحفظة وأمسك بها جيداً وعرضها على الحاضرين وهو ينضح سروراً.

لم يتحرك جوفائني عندما فتّشه الشاب بل شعر بتشّج شلّ حركته فالتصق لحمه ببذلته الجميلة.

كان في المحفظة ثلاثة آلاف لير.

"ليست لي. يجب أن أعطيها للميكانيكي غداً صباحاً فقد غير لي حارق السيارة. أقسم بالله. ليست لي. والله. صدّقوني".

انهمرت الدموع من عيني جوفائني وبكى بحرقه. رمى له أحدهم المحفظة بما فيها وغادر الماسويثون وعلى رأسهم الشاب المقدم المحفل بصمت.

التقط جوفائني المحفظة ووضعها في جيبه ونظر حواليه فما رأى سوى ضباب مبهم تسكنه أشباح غامضة. اقترب منه الدكتور سباتسياني ونظر إليه نظرة عابقة بخيبة الأمل وحدق في عينيه. طأطأ جوفائني رأسه. رفع سباتسياني يده المعطّرة برائحة كريم الشعر وهوى بها بكلّ قوّته على وجه جوفائني. ترنّح جوفائني بشدّة وتردّد صدى الصفعة في أرجاء الدّرج. خرج الدكتور سباتسياني وبعد دقائق خرج جوفائني.

كانت السماء صافية والقمر بدرًا. بعض الماسونيين ركبوا سياراتهم وعادوا إلى بيوتهم أما أكثرهم فقد تركوا سياراتهم وساروا جماعة نحو "عشاء المحبة" في مطعم متواضع معروف لجودة زيتونه الأسود واللحم المقدّد.

جوفائِي كان في آخر الركب لا يعرف ما عليه أن يفعل. هل يذهب معهم؟ أو لعلّ المغامرة الرائعة قد انتهت؟ بينما كان يفكّر فيما يعمله ازدادت المسافة بينه وبين الإخوان اتّساعًا. وضع يده في جيبه وأخرج مفاتيح الفيات العتيقة. سار خطوتين باتجاه السيارة فاقترب منه رجل قصير القامة.

"في أي طريق تذهب؟"، سأله الأستاذ وقد اقترب منه حتّى أنّ جوفائِي رأى نظارته تحت أنفه.

"أنا ساكن بالقرب من هنا. ولكن إذا أردتم يا حضرة الأستاذ أستطيع أن أرافقكم إلى منزلكم"، قال جوفائِي يحدوه الأمل أن يشفع له الخطيب بأن يشهد على كرمه وهو رجل هامّ في المحفل، هذا إذا أمكن تصحيح الوضع الذي آل إليه.

أيّ فرصة أحسن من هذه: هما الإثنان وحدهما في السيّارة. سيحاول جوفائِي أن يبدو شهيمًا وأن يبرّر خذلانه لأخ محتاج. لا بدّ أن الأستاذ سيتفهم موقفه وسيرى بنفسه استعداداه لتصحيح غلطته.

"سأخذه إلى البار وسأصبرُ عليه أن يشرب القهوة أو أيّ شيء آخر. فليشرب كأسًا من الكونياك إذا شاء!"، فكر جوفائِي وهو يشير بيده للأستاذ أن يركب السيّارة.

"ألا تريد الذهاب إلى عشاء المحبة؟"، سأله الأستاذ بعد أن تعرّف عليه من خلال نظّارتيه القدرتين

"هل يجب أن أذهب؟"، سأل جوفائني: "بعد كلّ ما حصل؟"
"طبعًا يجب أن تذهب. أنت أخ الآن وتبقى أحمًا إلى أن تُحال إلى النوم..."

"أحال إلى النوم؟"، سأل جوفائني.

"نعم. أي لا يستطيع أحد استبعادك إلا إذا جرت لك محاكمة نظاميّة لفصلك".

تنفس جوفائني الصعداء.

"لا تهتم بما جرى. الكثيرون بدؤوا حياتهم في الماسونيّة بشكل مضطرب ثمّ ظهروا فيما بعد كرماء وأوفياء. اذهب. اذهب إلى عشاء المحبّة. لا تهتم بي. سأركب الترام قريبًا من هنا. اذهب. لقد نسي الإخوان كلّ شيء بالتأكيد. عندما يرونك تدخل المطعم سيسعدون بروياك وبقوّة عزيمتك. هيا اذهب!"

شعر جوفائني أنّه يستعيد قواه ورأى الأستاذ يتعدّ ثمّ يختفي في الظلام. تسلّح بالشجاعة وسار على الطريق الذي سار فيه الماسونيّون. عندما فتح جوفائني باب المطعم كان أصدقاؤه السابقون قد بدؤوا يأخذون أماكنهم حول الطاولة الكبيرة التي أُعدّت لهم منذ بعد الظهر. رآه الماسونيّون وكان المرح باديا عليهم فنادوه ودعوه أن يأخذ مكانه بينهم.

تقدّم جوفائني نحوهم وقد لصقت ذقنه بصدرة وجلس على حافة المقعد، ثمّ عادت إليه حيويّته شيئًا فشيئًا حتّى عاد إلى لونه الطبيعي.

لم يكن يبدو أنّ أحدًا يريد الحديث عمّا حصل في المحفل لكنّ جوفائني شعر أنّ عليه أن يقول شيئًا. أخيرًا عندما قارب العشاء على نهايته، بعد أن سادت نشوة الخمر، قرّر جوفائني أن يتكلّم.

"اسمحوا لي أن أقاطعكم لحظة..."، قال جوفائني وقد قام واقفاً.

صمت الحاضرون ونظروا إليه مستفسرين.

قبل أن يحرك لسانه اعتراه شعور بالفراغ كالشعور الذي كان يراوده عندما كان طفلاً يضعونه واقفاً فوق الكرسي كي ينشد نشيد عيد الميلاد.

أغمض عينيه ثم فتحهما.

"أريد أن أعتذر منكم عمّا فعلته. أقسم بالله أنني لن أعود لذلك مرّة أخرى"، قال بصوت مرتجف وقد اضمحلّ جسمه مجدداً وتكوّر كلّه عند مركزه.

تأثّر الجميع دون استثناء، ثمّ قام أحدهم ويده الكأس فارتسمت على وجهه البشوش علائم من يريد الخطابة ولكن عندما استطاع الحديث أخيراً لفظ نخباً مقتضباً مختصراً:

"عفا الله عمّا مضى".

اتّفق كلُّ الحاضرين وشاركوه نخبه. صبّ أحدهم الخمر وملاً كأساً لجوفائني وأعطاه إياها. عضواً على كوؤوسهم وشربوا حتّى آخر قطرة.

لم يستطع جوفائني أن يحيل نظره عن الدكتور سباتسياني الذي كان يبدو متردداً. نظر إليه الرئيس مطولاً قبل أن يشرب، لكنّه في النهاية شرب. ألصق جوفائني الكأس بفمه وشرب بنهم كأنّه رضيع جائع يمسك بشدي أمّه.

"وأنا في هذا العمر!"، قال جوفائني في نفسه.

بعد بضعة أيام قرع مراسلُ باب بيت عائلة فيفالدي يحمل رسالة مسجّلة مستعجّلة ووضّل استلام.

كانت تلك الرسالة التي طال انتظارها، رسالة استدعاء ماريو إلى الامتحان التحريري للمسابقة في نهاية الشهر في مبنى الامتحانات تجاه وزارة المعارف العامة في حي "تراستيفيره".

كانت تلك الأيام أيام استنفار عام عند عائلة فيفالدي، حتّى أنّ السيدة أماليا اضطرت للخروج من حالة التشكُّك المريحة التي تعيش فيها وأن تتحرّك في كل أنحاء البيت كدمية مشدودة بزمبرك. أمّا جوفانّي وماريو فكثيراً ما يبقيان متشنجّين ينظر الواحد منهما في عيني الآخر في حالة من الوحشة المستمرّة.

لقد عاشوا جميعهم تلك الأيام الأخيرة في حالة من الاضطراب واللهفة والجنون والهديان الهادئ، فالأشياء التي بقيت في موضعها دائماً والتي أدّت إلى جعل بعض ما يقومون به حركة آليّة، تغيّرت أحجامها في نظر الأب والابن وبدت لهما في تجسّدها الأصيل كما تبدو البشرة الآدمية إذ تُوضع تحت المجهر، فلم يكونا يدركان أنّهما يتحرّكان في غرف البيت بخفة أكبر ولكن برشاقة أقل. عندما يحين المساء كانا يشعران بالألم في العمود الفقري وعندما يستلقيان على فراشهما يبقيان خاملين دون حراك يتذوّقان أوجاعهما الجديدة.

كانا يعرفان أن الدور الذي يقومان به ليس دورهما بل قد يكون أول أدوار قادمة بدأت ترافق حياة العائلة.

كانت تلك عشية يوم هام، أهم من عشية عيد الميلاد. بعدها ستُقرع الأجراس احتفالاً.

سيكون أول الاحتفالات ولن يكون آخرها. عند المساء، وهما في سريرهما، كانا يحلمان أحلام اليقظة. لم يكونا يحلمان بمستقبل غنيّ بالنجاح منفتح على كل الإمكانيات، بل كانا يتذكّران النهار الذي انقضى وكأنه انقضى قبل مئة سنة وليس قبل ساعات فحسب. هكذا وللمرة الأولى عندما كان أفراد عائلة فيفالدي يذهبون إلى النوم كان لديهم ما يكتبونه على صفحات حياتهم البيضاء.

كان كل شيء يشير إلى الأحسن. ماريو يحفظ عن ظهر قلب صفحات وصفحات من كتب مختلفة ومن حين لآخر يتمشّي حول الطاولة أو بين الغرف وهو يرّدّ درسه بصوت عالٍ.

أما أماليا فكانت تقطّع كل ما يؤكل لتضعه في الشوربة وهي تظنّ أنّ عليها أن تغذي ابنها بكل أنواع الفيتامينات والبروتينات.

أما جوفاني فقد استمرّ في مداومته للمحفل بانتظام دقيق وكان يتلقّى كلّ يوم خبراً صغيراً مريحاً.

كان يجب عليه أن يقوم بشتّى الأعمال فكان يمسح أدوات مراسم الماسونية ويكنّس الأرض ويضع الشمع على البلاط ويغيّر الشموع ويلمّع السيوف ويغسل الصداري المقدّسة.

بين الحين والآخر كان صاحب المكان، صاحب شركة الشحن، يرسله إلى البنك ليدفع كمبيلية أو يرسله لشراء الطوابع أو السجائر. وكان جوفاني يقضي ساعتين كل مساء وهو يلحق بلسانه عدّة كيلوغرامات من ظروف الرسائل، وأحياناً يجرح لسانه ويبلّهُ بحلقه.

طلب إجازة لمدة أسبوع كي يقسّم وقته بين ابنه وأمام باب مكتب الدكتور سباتسياني الذي كان متوقّفاً أن يحصل على أسئلة الامتحان. غداً

ثمَّ غَدًا وقد يكون غَدًا وهكذا.

وبفضل الطاقة الكامنة في الهمة الجديدة التي اعترته استطاع جوفائني أن يرقّع أوصال الأسلاك الكهربائية للبرّاد فجعله يعمل من جديد كما كان يعمل في سابق عهده.

في الساعة السادسة والربع من بعد ظهر أحد الأيام رنَّ جرس الهاتف. كان ثلاثتهم في المنزل وفجأة تجمّد الهواء: الهاتف الذي نسيته العائلة بعد شرائه عاد الآن للحياة وها هو يرنُّ رنينه الآلي الحَرِب. تشجّعت أماليا وقبل أن تحرك قدمها لتخطو باتجاه الهاتف مدّت كلّ ذراعها أمامها.

عبرت الحجرة وأمسكت بسماعة الهاتف بنفس العنف الذي تمسك به المكواة.

الدكتور سباتسياني يريد جوفائني.

بعد ثانية كانت أذن الأب قد حلّت محلّ أذن الأم.

"ألو، دكتور".

"جوفائني"، قال سباتسياني بصوت مختلف عن صوته المعتاد كما لو كان يختبئ خلف صوت أنثوي: "بعد ساعتين، حيث تعلم".

"حيث أعلم؟"، سأل جوفائني وقد احمرّ وجهه.

"نعم، في الورشة"، وأنهى المكالمة.

أحسّ جوفائني أنّ عليه أن يجلس فورًا فوجد تحت قفاه كرسيًا وضعه ماريو بسرعة البرق.

الورشة هي الكلمة التي يستعملها الماسونثيون عندما يريدون الإشارة إلى المحفل.

قضى جوفائى الوقت من الساعة السادسة والنصف حتى الساعة الثامنة وعشر دقائق واقفاً دون حراك عند درج المبنى كأنه حارس واقف أمام باب مخزن.

في الساعة الثامنة والرابع وصل الدكتور سباتسياني ومعه المفاتيح ودخل الاثنان وجوفائى لا يجروا حتى على التنفس.

جلس الرئيس وراء مكتب مدير شركة الشحن وعندما استقر في مكانه بدأ يستعيد لونه. لعل الجلوس وراء المكتب يعيده إلى نفسه ويعيد إليه هويته.

جلس جوفائى كالمعتاد من الطرف الآخر للطاولة، وكالمعتاد أيضاً مدّ رقبته إلى الأمام.

"حان الوقت"، هتف رئيس المكتب وغمز بعينه اليسرى.

فرك جوفائى يديه وضرب الأرض بقدمه ثلاث مرّات كالقرود.

"معي هنا نسخة عن المسألة الرياضيّة"، همس سباتسياني وهو يتلفت حوله.

قفز جوفائى يذفعه مغناطيس في معدته وهوى على يد رئيسه يقبلها بجشع لا حدود له.

كان يقبلها ويعرق ويتنهد بلهفة متزايدة.

استطاع أن يتلفظ بكلمة "شكراً" عشر مرات بين تنهداته وبصاقه وقرقعة لسانه.

أما الدكتور سباتسياني فقد تركه يقوم بحركات غوايته تلك وكان يطبق جفنيه بين الحين والآخر وكأنه كاردينال خجول يتقبل احترامات خوري يثق به. وعندما قرّر أخيراً أن يتخلّص من هذا العذاب كان جوفائى يردّد: "نحن لوحدنا، نحن لوحدنا، شكراً... شكراً..."

في النهاية بعد كلّ دلائل الصداقة المخلصة التي قدّمها جوفائى وبعد

كلّ حركات سباتسياني الصامته الشبيهة بالحب، بقيت على الطاولة ورقة كُتِبَ عليها بقلم حبر ناشف نَصُّ المسألة التي سيطرحتها بعد يومين رئيس لجنة الامتحانات على صفٍّ من أكثر من ألف متقدِّم للمسابقة.

استمر سباتسياني حوالي ساعتين وهو يوصي جوفائني بالحدْر والحيطة حول هذه السطور الأربعة اللاسعة كئار ملتبهة. كتب جوفائني تلك السطور بخط يده على ورقة أخرى ثمَّ أحرقت الورقة الأصلية وألقِي رمادها في المرحاض.

"أوصيك يا جوفائني. كن حدراً وإلا قد نُسجن. قل لابنك أن يكون حدراً وألا يأخذ معه شيئاً إلى الامتحان وأن يحفظ كلَّ شيء عن ظهر قلب، كلَّ شيء. فإن مسكوه فسنعف في بركة من الخراء كلُّنا وهو أوّلنا".

أكد جوفائني لرئيسه حرصه ووعدّه وعد شرفٍ أن يكون حدراً فليتم مرتاحاً فالسرُّ محفوظ وماريو ليس غيباً وعلى كل حال سيقوم جوفائني نفسه بمراقبة كلَّ شيء كي يجري بأمان وبحيطة بالغة.

مرَّ جوفائني في طريق عودته إلى منزله ببائع حلويات واشترى ست قطع من المعجّجات، وضع اصبعه في الخيط الذي رُبِطت به الكرتونة وعاد مرَّحاً إلى بيته.

كان ماريو يعيش على أعصابه التي توتّرت حتّى أصبحت كالأسلاك الشائكة تثقب لحمه.

كانت عيناه محمّرتين بالدم وشفثاه قد تحوّلتا إلى قطعتي فلين. عندما رأى أبيه ففز كالزئيرك وبأربع خطوات أوقفه عند الباب. عانق جوفائني ابنه منفعلاً وراضياً. فهم ماريو أن الأمر سار على ما يرام وقال في نفسه "ما أعظمك يا أبي".

النهم الأب والابن والأم قطع الحلويات وشربوا زجاجة شراب روحي كانت أماليا قد أعدته قبل أيام، قبل عيد الفصح الأخير، بالكحول والسكر

والماء ومسحوق بطعم اليوسف أفندي اشترته من السمان.
أخيراً، انبثقت من الجيب الداخلي لسترة ربّ العائلة ورقة عليها نصُّ
السؤال.
نشأ حول الورقة صمت ديني.

في صباح يوم الامتحان الموعود كان يبدو أنّ الشمس لا تريد أن تطلّ في موعدها المحتوم.

كان الأب والابن قد استيقظا منذ فترة وكانا واقفين تحت ضوء المصباح الباهت بينما كان حيّ "توسكولانو" بشوارعه الباردة يبدو كتنكة صدئة مليئة بالرضوض.

أطلّ جوفائني برأسه من النافذة ورأى سيارة اسعاف تنزلق بصمت على المسار المخصّص للترام وضوؤها الأزرق يدور بجنون. ثمّ رآها تبتعد ثمّ تختفي لكنّه تابع بنظره شعاع ضوئها الأزرق وهو يضيء عمارات الحارة ويوتها الواحد تلو الآخر.

رفع جوفائني ناظره علّه يرى بصيص الضوء عند الفجر ولكنه لم ير في المساحات الفارغة بين العمارات إلا النجوم المضيفة.

فجأة أضيئت أربع نوافذ أو خمس، سوّية تقريبا، في العمارات المحيطة.

فُتحت احدى هذه النوافذ وأطلّ منها رجل يرتدي المنامة ألقى بمرفقيه على عتبة النافذة ونظر إلى السماء كمن يريد انتظار طلوع الفجر. نظر جوفائني إليه لكنّه لم يستطع أن يعرف إن كان الآخر ينظر إليه أيضًا فقد كان ضوء المصباح العاري خلفه يجعل منه خيالاً كأنّه هدف له شكل انسان في حقل للرماية.

"لعلّ له ولد كماريو ولعلّ ابنه يجب أن يتقدم للامتحان نفسه أو لعلّه رجل متقاعد، من يدري؟"

بقي جوفائي طويلاً ينظر إلى الرجل في الشباك المقابل وكان الرجل ينظر إليه كذلك ويراه كشبح أو خيال أسود.

انطفأت أنوار الشارع فجأةً بينما بدأت خيوط الفجر الأولى تُلوّن السماء عند "كاستيلي روماني" على الجبال القريبة. دخل الرجلان وأغلقا نافذتيهما.

بين رشفة قهوة وأخرى كان ماريو يعيد بصوت عالٍ حلّ المسألة. كانت السيدة أماليا منحنية على طاولة المطبخ تضغط بكل قوتها على المكواة على طول ثنية سروال ابنها والبخار يتصاعد منه بين فينة وأخرى. سأل الأب ابنه: "هل أنت متأكد من نفسك؟" "اطمنن"، أجاب ماريو واستمر يستعيد درسه.

وضعت السيدة أماليا البذلتين والقميصين واللباسين والحوارب التي كوتها على الأسرة ولقّت نفسها بوشاح من الصوف وخرجت من البيت. كان جوفائي وماريو يعرفان تمامًا أين تتجه السيدة أماليا لكنّهما لم يقولا شيئاً، بل ألقيا نظرة خاطفة على الساعة وكان الوقت ما زال مبكراً لارتداء ملابسهما.

انعطفت السيدة أماليا عند زاوية العمارة وقطعت الشارع وسارت مئة متر ثمّ صعدت أربع درجات ودخلت كنيسة. كان هناك رجل عجوز يشعل الشموع عند أقدام القديسين المختبئين في محارِب حُفرت في الحيطان قائمين كأنهم موميאות محنطة في توابيتها.

وضعت أماليا أصابعها في حوض الماء المقدّس وصلّبت بيدها وركعت ثمّ ذهبت لتركع في آخر صف من المقاعد أمام الهيكل الأكبر. وبقيت هناك تهمس بسرعة فائقة دزينة من "أبانا الذي في السماوات"

ونصف دزينة من "السلام يا مريم" ومن "السلام يا سيدة" ومجموعة من الدعوات الأخرى.

ترنمت قليلاً، هامسة تارةً وتارةً بين نفسها، وصلبت مرةً أخرى ثم قامت واختفت في ظل كرسي الاعتراف المعتم.

أدخلت يدها تحت وشاحها وأخرجت من صدريتها كيسًا صغيرًا من القماش قلبته على راحة يدها فخرجت منه ثلاث حبات من الملح وثلاث حبات من القمح وثلاث حبات من البخور.

"يا ملح، يا ملح، يا ملوح أدخل إلى بيتي عناية الربّ السموح. يا بخور، يا بخور يا بخور أدخل إلى بيتي عناية الربّ الغفور".

بعد أن ردّدت دعاءها وضعت الحبات في الكيس وشدّت على وثاقه وأنجّحت نجو حوض الماء المقدس وغمرت فيه الكيس ثلاث مرات ثم خرجت مسرعة من الكنيسة.

عندما وصلت إلى بيتها وجدت زوجها وابنها بكامل ملابسهما.

"اعملي لنا قهوة أخرى...". أمرها جوفائي.

خلعت المرأة وشاحها، وذهبت إلى المطبخ وعبأت أداة القهوة ووضعتها على النار.

همّ ماريو بالجلوس تحت الساعة عندما رأى أمّه تقترب منه وقد بدا عليها الانفعال فلم يجلس بل بقي واقفًا أصابته الحيرة. أدرك جوفائي أيضًا انفعال زوجته وشعر بغصة في حلقه فلم يتحرّك.

عانقت السيدة أماليا ابنها وقبّلتها وهي على وشك البكاء لكنّها استطاعت أن تتمالك نفسها.

أزاح جوفائي رأسه وصرّ على أسنانه كي ييلع النشيج الذي يندفع من حلقه.

كاد ماريو أن يقول شيئًا ما لكنّ أمّه لم تمنحه الفرصة فقد فتحت يدها

فظهر في راحتها الكيس الصغير ما يزال مبلولاً بالماء المقدّس ووضعت في جيب سترته الداخلية.

"سيجلب لك حظاً سعيداً".

لم ينبث ماريو ولا جوفائني بينت شفة، أما أماليا فقد رجعت إلى المطبخ لتحضّر القهوة. كان الرجلان يتبادلان نظرات الودّ لا أثر للأحلام فيها بين قرعة الفناجين وقعقة الملاعق عندما سمعا أنين المرأة.

"ما أطيب أمك"، رقّ قلب جوفائني عندما قالها وقد تقوّست شفثاه إلى أسفل وارتفع حاجباه حتّى كادا أن يختفيا تحت شعره.

أوما ماريو برأسه إيجاباً دون أن يفقد ضبطه لنفسه.

أحضرت أماليا القهوة وعادت إلى المطبخ ثمّ خرجت ويدها ملعقة يتصاعد منها البخار.

"يا يسوع يا يوسف يا مريم

باركوا داري

يا يسوع يا يوسف يا مريم

أبعدوا الحسود عن داري".

وهكذا دارت المرأة في أرجاء البيت تبخّره وهي تتمتم دعاءها.

حانت ساعة الخروج. كان جوفائني قد قرّر منذ الليلة الفائتة أن يذهب مع ماريو إلى مبنى الامتحانات بالترام تفادياً لأية مفاجأة وأن يخرجها في ساعة مبكرة زيادة في الحيلة والحذر.

"سأدعو الله لك"، كانت هذه آخر كلمات السيدة أماليا.

"إلى اللقاء يا أمي"، هذا آخر ما قاله ماريو.

"هيا، هيا"، قال جوفائني مؤكّداً على كلماته.

انتظر الاثنان الترام مدة ربع ساعة. لم ينطقا بكلمة فقد انغلق كلٌّ على نفسه فأصبح الرأس كالقرعة قائمة على عصا مكنسة بدل العمود الفقري. وصل الترام وصعدا وهما يكادان أن يمسك الواحد بيد الآخر. "يوم الأحد سنذهب إلى صيد السمك مارأيك؟" ظنَّ جوقائني أنَّ سؤاله هذا قد يريح أعصاب ماريو. "طبعًا. الأحد سنذهب للصيد"، كأنَّ الولد أجاب أبيه: "اطمنن. كلُّ شيء على ما يرام".

في تلك الساعة من الصباح كان الترام يسير بسرعة بركباه من العمَّال الفقراء، جلُّهم من عمَّال البناء ما بين عمَّار وقَعَّال. كان الأب والابن جالسَيْن قرب باب النزول، الساق على الساق ويداها منفردتان على رُكبهما.

أنعسهما اهتزاز الحافلة الرتيب فكانا بين الفينة والأخرى يرفعان أجفانهما وينزلان مُقلَّ أعينهما حتَّى تعود إلى وضعها الطبيعي. حرَّك جوقائني نفسه ونظر خارجًا كي يعود إلى يقظته. مرَّت أمام ناظره كتائب من النوافذ المغلقة والمفتوحة وفرق من السيَّارات المركونة وبعض أشجار بدت متفحِّمة وحافلات شركة النقل تَصرُّ كصرير الدبَّابات. في أحد المواقع صعد صبي ازدان بألف لون ولون يحمل راديو تنبعت منه الموسيقى وبعد أن أبرز بطاقته للسائق تعلق بإحدى يديه بعلائق سقف الحافلة وبدأ يتحرَّك بمؤخرته على إيقاع الموسيقى. ألقى جوقائني نظرة على ولده فرآه متناعسًا فتركه في حاله وبدأ يُجِيل نظره بين المساكين المرتمين على مقاعد الحافلة.

كانت حالته النفسية حالة الواصل بنفسه وبمعرفته لأمر الدنيا فكان ينظر إلى أولئك الفقراء نظرة أسى وأسف فلم يكن يستطيع أن يعلمهم شيئًا. أولئك كانوا في حالة لن يؤول إليها لا هو ولا ابنه ماريو.

لقد ماتت فزاعة تلك الحالة يوم حصل ابنه ماريو على شهادة المحاسبة. إنه يستطيع الآن أن ينظر إلى أشباح الخوف من العازة والحاجة في أعينها فهاهي أمامه وقد لبست مسوح أولئك الفقراء وقد طبعت عليها علامات الأعمال الحقيرة التي يقومون بها كأنها الحمى القرمزية باقية إلى الأبد. كان جوفائني غارقاً في أفكاره هذه وهو ينظر إلى ذلك الصبي ذي الألوان المتعددة والمؤخرة المترافصة، ذلك الصبي الأجرى الهمجي الذي لن يصبح محاسباً مهما طال الزمن.

نظر حوالياه نظرة الواصل المتفتح وقد أدهشه ذلك من نفسه وسر به. عندما كان يعيش في خوف من مستقبل أسود داهم، كان منقبض النفس لا يتقبل الواقع ولا يرى من الدنيا شيئاً أما الآن فقد حلّ النور محلّ الظلام وعمّ كل شيء حاضراً ومستقبلاً فهاهو يرى العالم واسعاً رحباً يتسع للدهانين كما يتسع للمحاسبين. عادت إلى ذاكرته - وإن كانت الأفكار تنزلق في خدر عقله انزلاقاً - بعض المفاهيم التي أوردتها الأستاذ:

"الفرجار، تألف تقدم كل الأشياء، نقطة المركز والزواية المنفرجة أو الحادة تزداد اتساعاً أو تنقص".

كان جوفائني على وشك الوصول إلى التقاعد ولم ير في حياته أبداً محاسباً يعمل دهاناً.

أما الامتحان - فبعد العياد بالله من الشيطان الرجيم والنقر على الخشب - فلم يعد يشكّل عائقاً لمستقبل ابنه.

"نهار جميل"، فكر جوفائني بينما كان ينظر إلى سطوح العمارات وقد غمرها الضوء، ثم أنزل ناظره حيث الغداة المبكرون يمشون في طريقهم المعتاد يحيط بهم صمت كئيب يرافقونه في رحلته نحو مبنى الامتحانات، قد ينحرف أحدهم يميناً أو شمالاً وقد تأتي سيارة ترافق الترام خطوة ثم خطوة. كأن العالم كله قد استيقظ مبكراً ليرافقه وماريو: موظفو الوزارات

وشغيلة الدكاكين، أطيّب الناس في هذه الدنيا.
عند محطة "ترميني" نزل جوفائني وماريو وأتجها نحو المقهى ليشربا
فناجئين آخزين من القهوة.
سأل جوفائني ابنه: "كيف حالك؟"
"بخير"، أجاب ماريو.
"هل يمكن أن يستولي عليك الانفعال فتفقد الذاكرة؟"
"لا يا أبي. كل شيء هنا في رأسي كالسلام يا مريم!"
قال ماريو ذلك وهو يشير بإصبعه إلى رأسه كأنه يريد أن يضعه في
عينه.

"هل أحضرت القلم؟"
"أحضرت ستة أقلام... كلها جديدة."
"هل الساعة معك؟"
"لا، لا تلزمني".
خلع جوفائني ساعته وأعطها لولده دون تردّد.
"تذكّر جيدًا: يجب أن لا تسلّم الأوراق مبكرًا أو متأخرًا. يجب أن
لا تُنار حولك الشكوك".
هزّ ماريو برأسه وربط الساعة على يده.
"كم الساعة؟"، سأله أبوه.
"ما زال الوقت باكراً".
"من الأفضل أن نذهب مشيًا"
"مشيًا؟"

"المكان ليس بعيدًا والمشى خير لك ثمّ أنّ حركة السير في روما
لعينة". شربا القهوة وخرجا ولساناهما ما زالا ساخنين وياشرا السير نحو
مبنى الامتحانات في شارع "تراستيفره". كانت المدينة تمتلئ بالحياة شيئًا

فشيئاً والسيارات قد تراحمت عند تقاطع الطرق.

لم يعد لجوفائِي وماريو شيئاً يقولانه لا لبعضهما ولا لنفسيهما ولعلَّ مردُّ ذلك أنَّ الغاية المنشودة قد ازدادت اقتراباً أو أنَّ التوتُّر قد كاد أن يصل بهما إلى أقصاه.

كانا يمشيان، الابن خلف الأب، كفضَّاعتين، والأرض تدور تحت أقدامهما فيقتربان من مبنى الامتحان دون هواده. نسيا كلَّ ما حولهما وسارا ينطقان باسم الشوارع التي يمرَّان بها ثمَّ يتابعان بصمت.

وكما كانت السيارات ترافقهما عندما كانا في الترام أصبح المشاة يرافقونهما نحو مبنى الامتحانات كالأسماك الصغيرة تتبع الحوت نحو مغامرات المحيط.

هذا شارع "ناتسيونالِه" وهذا شارع "4 نوفمبره" وهذه ساحة "فينيسيا" ثمَّ ساحة "جيزو" بكنيستها ذات الطراز الباروكي وفيها مقر الحزب الديمقراطي المسيحي وقصر الماسونيَّة ومعهد الصمِّ والبكم، ثمَّ هذه ساحة "أرجنتينا".

"الحذاء يولمني"، كان ماريو يقول بين الفينة والأخرى لكنَّ أباه كان يسير إلى الأمام بإمعان.

من هناك عبرا إلى ساحة صغيرة مرَّبعة حدث فيها ما حدث. دام الحدث رمشة عين ودهراً كاملاً في ذات الوقت. لم يُكمل ماريو نطق كلمة "ماما" ومات.

قبل لحظة أو قبل دهر علت صرخة امرأة من تلك الصرخات التي تمزِّق الحلق.

كان الدم ينهمر من سروال الصبي كالشلال. قتلته عيارات نارية. عُرف بعد ذلك أنَّها كانت طلقات بنادق رشَّاشة من النوع الذي يستخدمه

مشاة الجيش. كيف حصل ذلك؟

سطو مُسلِّح على "مصرف الرهونات" في وضح النهار.

في ذلك النهار كان دور ماريو ففقد حياته فيه، عين غطست في بركة من الدم والعين الأخرى مفتوحة ما زالت تنظر إلى الأب.

وجد جوفائني نفسه على ركبتيه إلى جانب ابنه المسجى وقد انقطعت الكهرباء عن عقله وعن كل ما فيه.

ثلاثة شباب أطلقوا النار عشوائيًا كي يبعدوا الناس ويصلوا إلى سيارة كانت بانتظارهم ومحركها مشتعل. لو لم يحاول موظف من موظفي المصرف أن يوقف المجرمين لما قُتل ماريو. ولكن من كان يفكر بماريو في تلك اللحظات؟

ارتسم كل شيء ولم يرتسم في عقل جوفائني.

شيء لا يُصدّق: إنه لم يسمع أزيز الرصاص.

بقيت رائحة الدم عالقة به مدة طويلة ولم يبرحه إحساس بالزوجة كلزوجة العسل بين أصابعه.

بقيت صرخة المرأة ترنّ طويلاً في صدغيه، وفي مقتلته انطبعت صورة واحد من المجرمين الثلاثة سقط عنه لثامه فلم يهتم به وهو يصرخ بزميليه أن يركضاً.

مات ماريو قبل أن يهوي إلى الأرض وعند سقوطه اصطدمت يده بيدي أبيه فأصابتهما بضربة كضربة قطعة من الخشب.

كان جوفائني يعيش مباشرة حادثاً إجرامياً كذلك الأحداث التي كان يتحدث عنها مع زملائه في المكتب أو في سريره مع السيدة أماليا.

مات ماريو. لم يفهم جوفائني هذا في اللحظات الأولى للمأساة وقد يكون لهذا السبب أنه لم يفهمه أبداً. كانت ركبنا جوفائني غاطستين في دم ابنه وقد انهالت عليه بسرعة الضوء قذائف إحساسات كونيّة.

بعد المأساة، مع مرور الزمن، عاد إيقاع حياة جوفائني إلى ما كان عليه وإن كان بشكل متعب. انتهى العويل وانتهى عدم التصديق لهول ما حصل، انتهت الجنازة وانتهت التعازي وشيئاً فشيئاً عاد كل شيء إلى مكانه وعادت الأيام تسير على سكتها المحددة كما يجب أن تسير. زملاء العمل وإخوة الماسونية وآخرون أرسلوا برقيات التعزية لجوفائني وزوجته.

وبنفس السرعة التي انتشر فيها الخبر فقد قيمته وغابت صور أفراد عائلة فيفالدي عن صفحات الصحف لتحل محلها بين حين وآخر صور آخرين نزلت عليهم مصيبة من المصائب.

بين الحين والآخر كان يُنشر خبر مقتضب عن سير التحقيق في عملية السطو على "مصرف الرهونات". مصائب أخرى حلت محل مصيبة جوفائني وعائلته.

"كان أطيب من أن يعيش في هذه الدنيا"، كان الزملاء يقولون له في كل مرة.

"هذا قدر محتوم. تطلع إلى المستقبل".

"أي مستقبل؟"، كان جواب جوفائني الصامت.

ثم اقتنع هو أيضاً أنّ ماريو كان ملاكاً، والملائكة لا تستطيع الحياة على هذه الأرض.

أراد الله أن يأخذه إلى جانبه وفي ذلك اليوم أرسل يستدعيه.

لكنَّ عُـمق اقتناعه هذا لم يكن أقلَّ من ألمه، فقد نشأ حوله فراغ لا حدود له.

آه، لو كان لديه ولدان عوضًا عن ولد واحد لبقى له ولد احتياطي يعوّض، جزئيًا على الأقل، عن مصابه ويملاً الصحراء القافلة التي تركه فيها ماريو.

لقد فات الأوان ولن تستطيع أية معجزة أن تعيد ماريو للحياة.

”تطلّع إلى المستقبل!”

كان جوفائي لا يرى في المستقبل إلا حادثتين أكيدتين بل مصيبتين نهائيتين:

موته وموت زوجته، ولا شيء آخر. عندما كان كلُّ شيء يبدو على أحسن ما يرام سقطت الدنيا على رأس جوفائي. هذا حق: الدوائر تدور ولا بد أن تدور بك يومًا وتسحقك. لقد مرّت في حياة جوفائي أيام سعد وأيام بؤس كما في حياة كلِّ البشر لكنّه أحنى رأسه باكرًا وإلى الأبد وفقد ابنه اليافع كالغصن الطري.

أما أماليا، تلك المرأة المسكينة التي داعب الحلم خيالها للمرة الأولى فقد وقع عليها المصاب وقع الصواعق فأصيبت بجلطة دمويّة بعد شهر من موت ابنها. منذ ذلك الحين بقيت جالسة بلا حراك، بلا عقل، بلا إحساس، على كرسي الخيزران في الممرّ في كنفة الظلمة فالضوء يؤلمها.

صحيح أنّ الضغط عندها كان دائمًا مرتفعًا قليلًا وصحيح أنّها كانت تشرب سوائل كثيرة لكنّ ما هدّها هو موت ماريو.

فكّر جوفائي أنّه لا حدود لما هو أسوأ ولعلّها كانت تتألم أقلّ وهي على هذه الحال عديمة الإحساس. لن يتأخّر جوفائي عن القيام بواجبه نحوها فسيطعمها وسيقوم بكل احتياجاتها وفيه بمتطلباتها برعاية وحنان.

هكذا سارت الأمور بعد المصيبة كما سارت. قام الدكتور سباتسياني والإخوة الماسونثيون بكل ما في وسعهم لمواساة جوفائني فكانوا يدعونهم هنا وهناك وحاولوا إيقاظه من خدره بنصائحهم وتوبيخاتهم.

"لقد أصبحت تهمل المعاملات يا جوفائني. انتبه فإن بقيت على هذه الحال فسأعود إلى مخاطبتك بصيغة الاحترام"، قال له الدكتور سباتسياني على الهاتف عندما اضطرَّ إلى تنبيه جوفائني وقد أهمل عمله. أفاق جوفائني إلى نفسه وعاد إلى القيام بعمله بهمة ونشاط لم تعرفهما الأيام الخالية.

كان يعود بسرور إلى المكتب بعد الظهر يتفحص ملفاته ثم يضعها بترتيب على الرفوف وكأنه موظف جديد يتطلع إلى الترقية. ذات يوم بينما كان في مكتبه بعد الظهر جاءته مكالمة هاتفية.

"السيد فيفالدي؟"

"نعم"، أجاب جوفائني.

"أنا تشايب، الرقيب في الأمن العام، تعال إلى مركز الشرطة غدًا صباحًا الساعة عشرة"، ثم أغلق الهاتف.

اصفرَّ وجه جوفائني فإنَّ صوت الرقيب الناشف قد جمَّد الدم في عروقه.

"ماذا يريدون مني؟"، فكَّر جوفائني.

لم يحصل أبدًا أن استدعته العدالة قبل ذلك.

وصل إلى مركز الشرطة في الموعد المحدد بالضبط كعادته في كل شيء دائمًا. أمره أن يجلس وينتظر الرقيب تشايب الذي لم يكن موجودًا حين ذلك.

أطاع جوفائني الأوامر واتجه إلى مقعد رآه بالقرب من سجان التدفئة.

بعد نصف ساعة استسلم للأمر الواقع وفهم أن عليه أن ينتظر طيلة ذلك الصباح على الأقل.

اعتدل في جلسته وأخرج من جيبه مجلة "الكلمات المتقاطعة" وبدأ بحلها.

لو كان يعرف سبب استدعائه لهدأت خواطره وانتظر براحة بال. كان ينظر بعين إلى لوحة الكلمات المتقاطعة وبالآخرى يتفحص المكان وقد بدا له مشحونًا بشحنة كهربائية عالية على أهبة الانفجار بين لحظة وأخرى، ففي ذلك المكان تلتقي الأضداد، في قاعة الانتظار، في الغرف الواسعة، على الدرج وفي كل مكان، يلتقي الأختيار بالأشرار، الشرطة والمجرمون، حماة النظام ودعاة الفوضى. وكل ما يفرق بينهم بزة خضراء وقبعة خضراء ومسدس في غمد يتدلّى من الحزام. كم شرطياً يلبس لباس المجرمين في ذلك المكان؟ وهل هناك مجرمون يلبسون زي الشرطة؟ اقشعرّ بدن جوفائني لهذا الخاطر وانتفض واقفاً.

نظر إلى ما حوله وقد انفرجت شفتاه.

مرّ أمامه مجرمون يقتادهم رجال الشرطة، ورجال شرطة لهم وجوه

إجرامية، ومجرمون لهم وجوه رجال الشرطة.
بلع جوفائي ريقه وبدأ يتمشى ذهابًا إيابًا ويحاول أن يفكر بشيء
آخر.

لم تعاوده تلك الأفكار الجنونية وعاد ينتظر مرتاح البال قليلاً ككل
رجل نزيه في ذلك الوسط.

في نهاية المطاف، لم يكن كل أولئك الناس المكلفين بالأمن سوى
موظفين مثله بل لا وجود لهم دون وزارته. كم منهم سيُحالون إلى التقاعد
يوماً؟ كلهم! كل رجال الشرطة يعملون من أجل تقاعد استحقّوه وليس من
أجل تخليد ذكراهم. جميعهم يعملون من أجل هدف واحد وكل واحد
يعمل من أجل الجميع. كما في الوزارة، لدائرة الشرطة مصعد كبير وطابق
رابع وعدد مجهول من الموظفين المدنيين، بعضهم من الصنف المثقف
وبعضهم من الصنف الرديء، وفي الدائرة أيضاً رؤساء أقسام ومفتشون ومن
كل الدرجات حسب القواعد المعمول بها السارية على كل موظفي الدولة
سواء كانوا من وزارة الداخلية أو من وزارة الخزانة. للمصعد الضجيج نفسه
ويثر الأزيز نفسه وقد تكون الشركة نفسها التي صنعت المصعدين.

مرّت ساعتان وأكثر والرقيب تشاّبي لم يأت بعد، ولم يرد ببال
جوفائي أن يذكر أحداً بوجوده فقد كان قد تأقلم مع تلك البيئة وإن بقيت
في أحشائه وخزة.

في الساعة الثانية عشرة ونصف وقف جوفائي في وسط القاعة وقد
أبعد ما بين ساقيه ووضع يده على قلبه.

قد يمرّ أخ ماسوني، عاجلاً أم آجلاً، ولعلّه يكون دليلاً له وينصحه
نصائح مفيدة قد تنقذه من مأزق قد ينجم من لقائه بالرقيب تشاّبي.

الناس يمرّون أمامه ولا ينظرون إليه. اثنان أو ثلاثة فقط داروا حوله
لكن نقصتهم الشجاعة أن يكلموه. تفحصوه من رأسه حتّى سافل قدميه ثمّ

ابتعدوا واستداروا ينظرون إليه وساروا نحوه خطوة أو خطوتين ثم عدلوا ومشوا في طريقهم.

أتاه وهو على هذه الحال الرقيب تشايب فتعجب منه وأمره أن يتبعه إلى مكتبه.

دخل الاثنان إلى حجرة صغيرة جلس فيها شرطي غلبه النعاس خلف آلة كاتبة.

"هل تسمع؟"، قال جوفائي وهو يمدُّ يده مصافحاً.

نظر الرقيب إليه بارتياح وقد فتح عيناً وأغلق الأخرى ومدَّ له يده.

"فيشالدي جوفائي ، موظف ... "

شدَّ جوفائي على يد الرقيب واضعاً إصبعه على رسغه كما يفعل الماسونيون.

انتفض الشرطي وأمره أن يجلس وهو يكاد أن يصرخ. رسم جوفائي على وجهه أمارات الجذِّ الذكورية كي يزيل أي التباس وبقي طيلة الوقت شاهراً إصبعه وكأنه متشنج.

بينما كان الرقيب يملي على الشرطي ما يجب أن يكتبه في المحضر كان جوفائي يداعب إصبعه القائم ويأتي بحركات تتم عن الألم.

"أنت أبو القتل، أليس كذلك؟"

أوماً جوفائي برأسه إيجاباً بعد أن قام بعشر حركات في تقاسيم وجهه.

"لقد رأيت وجوه القتلة، أليس كذلك؟"

"وجه واحد منهم فقط"، قال جوفائي وهو ينظر إلى الأرض.

"هل تستطيع أن تعرّف عليه؟"

نظر جوفائي إلى الرقيب وهو يظنُّ أنه يستطيع أن يبدي في عينيه

كلَّ حقدَه الدفين، لكنَّ الرقيب كان يحدِّق فيه كما يحدِّق بائع التذاكر في
الباص في الراكب الذي يبحث في جيوبه عن ثمن التذكرة.
"نعم".

سيق جوفائي إلى غرفة وجد فيها خمسة من شهود العيان الذين شهدوا
حادثة السطو الشهيرة.

أطفأت الأنوار، تمامًا كما يحصل في قاعة السينما عند بدء العرض،
وأضيء حائط عليه خطوط رمادية أفقية ثم دخل سبعة أشخاص لهم ملامح
المجرمين اصطفوا طوال الحائط كما أشار لهم الرقيب تشايب.

"نحن متأكدون أن الجنتلمان الذي نبحت عنه هو واحد من هؤلاء
السادة المحترمين. قولوا لي من هو والباقي علي!"

بدأ الشهود الستة يحكّون جلدهم ويتكئون على ساق ثم على
الأخرى. أمّا جوفائي فقد نضح بدنه بالعرق بدءًا من تحت إبطيه ثم صدره
فمنبت شعره فأذنيه ثم باقي أنحاء جسده.

ومضت في خياله لمحات باهتة من بعض لحظات يومه الأخير مع
ولده حاول أن يكتشف عبرها الوجه المطلوب. كانت تتقاطع في مخيلته
ثلاث صور لوجوه أولها وجه ماريو الأبيض. أما صورة وجه القاتل فكانت
تظهر وتغيب وتختلط بصورة وجه الصبي ذي الألوان المتعددة والقفأ
المتراقص المتعلق بمسافة اليد المعدنية في الحافلة كأنه خرقة بالية.

لم يتعرّف جوفائي على وجه القاتل بين تلك الرؤوس التي كانت تبدو
لناظره بين الفينة والفينة تحت الضوء المعدني في تلك الغرفة. كان جوفائي
أول من هز رأسه نفياً وما لبث أن لحق به الآخرون.

أشار الرقيب بيده غاضبًا أن يذهب كلٌّ في حال سبيله، الممثلون
والمشاهدون.

في البيت كان في انتظاره جسد أماليا المتهالك على كرسي الخيزران.
قَبَل جبهتها كعادته المستجدةً وذهب إلى المطبخ ليقلي البيض. فتح البرّاد
فغزت منخريه على الفور هبّة من رائحة العفن النتنة. كان البرّاد معطوباً
وكانت جدرانه الداخلية تبدو وكأنّها تنضح بالعرق كجلد آدمي أصابته
الحمّى.

همهم غاضباً وأخذ البيض وشرع بقله. بعد أن قلاه جرّ آلة الخياطة
وقربها من كرسي الخيزران وحضّرها كطاولة وجلس قبالة زوجته.

بعد الغذاء اتّخذ له مكاناً بالقرب من النافذة كما يفعل كل يوم وشرع
بحلّ الكلمات المتقاطعة والقاموس بيده. بعد أن انتهى من حلّ الجدول
نظر إلى الساعة.

"من الأفضل أن أذهب. السير أقلّ ازدحاماً الآن"، قال موجّهاً كلماته
نحو أذني أماليا.

رتّب أمره وخرج.

وجد مكاناً للسيّارة أمام كشك مغلق لبائع زهور. نزل من السيّارة
واتّجه نحو المدخل.

كلّما نظر إلى المقبرة عاوده الغضب لأنّه خسر معركة الفوز بقبر يضع
فيه جثمان ماريو. لا توجد أماكن شاغرة، لذا وضعوا التابوت مؤقتاً في
المستودع وواعدوا أن يدفنوه في أول مكان شاغر في أقرب فرصة. "عليك
أن تصبر". كلّما أفرغوا مكاناً وضعوا فيه جثة من الجثث القديمة القابضة

في المستودع تنتظر دورها. لم يستطع أن يعمل شيئاً ولم تنفع الوساطة مع إدارة المقبرة.

استسلم جوفائي للواقع.

"الحصول على مكان في الوزارة أسهل من مكان في المقبرة"، فكّر جوفائي وهو يطأ بقدمه أرض المقبرة الخصبية.

ازداد عمران المقبرة كثافةً، نظرًا لضيق المساحة وكان منظرها لذلك يشير الدهشة. الجثث ملقاة في كل مكان، القبور مكتظة، في كل ناحية وفي كل منعطف مدفن، الصلبان متقاربة حتى يكاد المرء يتساءل إن كانوا يثنون الجثة ثنتين قبل أن يضعوها في القبر. أشكال القبور الهندسية الفنية توحى بوضعية الجثث المزعجة، ففي بعض المناطق تبدو جالسة في توابعها فقد وضعت عموديًا وكأنها جنود في عرض عسكري.

شعر جوفائي أنه يمشي على منبسط من التوابيت تغطيه حفنات تراب قليلة فراوده إحساس بالانقباض.

السهم يدلّه على اتجاه المستودعات. مشى جوفائي طويلاً إلى أن وصل أمام مبنى كبير بدا له ككنيسة مهجورة. عرف المبنى حيث يرقد ماريو بانتظار مدفن لائق.

ما أن وضع قدمه داخل المبنى حتى اجتاحتته رائحة الزهور فاستهلكت كل الأكسجين في رئتيه وأصابته بالدوار كمن ضُرب بمطرقة على رأسه.

كانت عشرات الآلاف من الشموع تكاد لا تقوى على البقاء مضاءة في هواء ذلك الجو المتصلّب وتلك العتمة المقيتة المروعة. أدمعت عينا جوفائي وأحرقتهما أبخرة المطهرات السائلة والمنبعثة من زهرة الخزامي.

لم يكن بين آلاف الواقفين في ذلك المكان إلا من ينتحب أو يشدّ شعره أو ينادي بملء فمه اسم فقيده.

لم تكن تلك غرفة يوضع فيها الأموات، بل بدت له مكاناً عامًا

للنحيب، مثله مثل باقي المرافق العامة، بُنيت خصيصًا لهذا الغرض، مثل الحدائق العامة أو دور الحضانة أو سُبُل المياه العامة. فمن أراد العويل والبكاء ذهب هناك وقضى حاجته، كمن يريد التبول فيدخل مرحاضًا عامًا ويقضى حاجته. هل كلُّ الحاضرين قد جاؤوا ليكوا فقيدًا فقدوه؟ لعلَّ بينهم من جاء ليريح أعصابه ويخمد ثورة نفسه! قد يجوز افتراض الحاليتين معًا: عندما يبكي الإنسان عزيزًا فقدته إنمَّا يبكي أشياء أخرى عديدة.

صراخ ونحيب وعويل، إذن.

وصل الشمع المنساب من الاحتراق حتَّى السقف والتصق بكل الزوايا متخذًا شكل حمم بركان انتشرت وتبيّست تعبرها غدائرٌ جديدة ساخنة حتَّى الغليان. كانت التوابيت قد صُفّت بعضها فوق بعض على مدار الجدران إلى أن وصلت السقف. وعلى التوابيت أُلصقت الزهور البلاستيكية والصور ورسوم القديسين وأكاليل من تنك وصلبان من كل حجم ورسم.

مرَّ جوفائيّ أمام امرأة نحيلة هزيلة كانت ترتّب على نعشٍ مِذودًا وضعت فيه تماثيلَ لبقرة وحمار وكوخ المسيح ومن حوله المسك. توقّف برهة وقد غلبه الفضول ثمَّ عاود السير يشق طريقه بين الآلام والعويل.

رفع رأسه وتفحص بعينه صفين أو ثلاثة مفتشًا عن نعش ماريو في الصفوف القريبة من السقف: النعش جديد وخشبه ما زال غير داكن اللون وعليه صليب برونزي وُضِع عند القدمين. عندما بدا له أنه قد تعرّف عليه توقّف تحته وحاول أن يركّز فكره لكنّه لم يستطع.

كان بالقرب منه رافعة وُضعت على جرّار شديد الضجيج والقبارون يحاولون حشر ضيف جديد في أحد الصفوف ويصرخون ويتجادلون بأصوات عالية لصداها رجع ثقيل.

"ارفع ... ارفع ... لا، لا، خذ إلى اليمين، إلى اليمين ... تحت ... تحت".

وإن لم يكف كلُّ هذا فبالقرب منه امرأة غير عجوز تخاطب زوجها الميت وتعاتبه لأنه تركها وحيدة حزينة بلا سلوى. بينما كان على تلك الحال اضطرّاً أن يبتعد قليلاً ليفسح لها المجال لتقذف باقة بنفسج فوق نعش زوجها، لكنَّ النعش كان مرتفعاً جداً ورأى جوقائي أنها لم تكن لتستطيع أن توصل الزهور حيث تريد والزهور تقع المرّة تلو المرّة ويزداد تلفها فتقدّم لمساعدتها. التقط الباقة من على الأرض وبعد محاولتين أو ثلاث استطاع أن يُسقطها فوق التابوت لكنَّ ما وصل منها لم يكن سوى بضعة سيقان وأوراق قليلة بالية. رفعت المرأة كتفها علامة الشكر وذهبت في حال سبيلها.

عاد جوقائي ووجد بعينيّه نعش ماريو وعاد يحدّق فيه دون تفكير. كان ذهنه ما انفكَّ عن إرسال همهمة خاوية كجعجعة معدة فارغة. تخشّبت جبهته، والتجاعيد التي كانت تعبرها عبور السكّة الحديدية بدت كمن نجا من حادث فظيع تشبّث بها حاجباه وكشفا عن عينيّه العالقتين بمداربيهما كسجينين لا فرار لهما.

كان ضائعاً حائزاً مشتت الذهن والروح، ولَبَقِي على حاله تلك زمناً طويلاً لو لم يقع انفجار مدوّ هزَّ كل النعوش المرصوفة في المستودع. صراخ وإغماء ورعب.

لحسن الحظ لم يصب الهلع الجميع، وأدرك جوقائي ما حصل عندما توقّف الصراخ وساد صمت مرتعد زاد من ذهول الحاضرين.

ماذا حصل؟ انفجر تابوت مكون على الطابق الثامن أو التاسع، خلف جوقائي، وخرجت من الشقوق التي أحدثها الانفجار مادة غريبة الشكل، عبارة عن مزيج من الأسمال الرطبة ومن الرغام الكثيف.

"لا داعي للخوف"، قالت له سيّدة عجوز لها ملامح العارفين بينما عاد العويل العام يسود المكان: "بين الحين والآخر ينفجر تابوت بسبب الغاز الذي يتشكّل داخله. أنا أقول إنّ الموتى يثورون لأنهم تعبوا من البقاء

هنا فهم يريدون أن يُدفنوا كالأخرين. صار لي عشر سنوات وأنا آتي هنا. هل ترى ذلك النعش هنا، هناك تحت ذلك؟"، وأشارت له بيدها وهي تشده من كمّه حتّى استدار بالكامل: "ذلك زوجي. يومًا ما سينفجر هو أيضًا".
"نرجو أن لا يقع ذلك"، قال لها جوفائِي ليسايرها: "عاجلاً أم آجلاً لا بدّ أن يجدوا له مكاناً".

ابتسمت ابتسامة هازئة وقالت له: "أنت واهم"، ثمّ ابتسمت لنفسها بهزء ومضت تقول: "الحق على المدير، هذا الخنزير المقرف، هذا الضبع أكل الجثث، والله بودي أن أطلق عليه رصاصة في فمه!"
استدار جوفائِي ورأى مجموعة من عمّال المقابر يدخلون المستودع.

ذهبت المرأة برفقة لعناتها واحتجاجها.
تسلّق عمّال المقابر جبل التوايت بخفّة ويدهم المطارق والمسامير وأعادوا كل شيء إلى ما كان عليه بلمح البصر.
هدأ الحضور وعادت السكينة المعتادة تلفّ المكان، إن كان ذلك الجوّ الجهنمي المفعم بالبكاء والصلوات سكينةً.

هكذا حان الوقت المناسب كي يبذل جوفائِي بعض الدموع المرّة على ولده. رفع رأسه وأجال النظر في صفوف النعوش المرصوفة وحدّق في نعش ابنه وقد اشتدت عروق رقبتة حتّى كادت أن تتقطع.

كان النظر إلى الأعلى يخفّف من ألمه. لو كان ذلك الحائط المكوّن من التوايت عمارة من عمارات حي "توسكولانو" لكان ماريو يسكن الطابق الأخير منها، ولو كان مبنى الوزارة لكان مكتب ماريو بالقرب من مكتب الوزير. ولو كان كلُّ أولئك الأموات ضحايا حرب لكان ماريو أصغر الأبطال الشهداء سنًا.

وأخيرًا إن كان عرش الله حقًا في أعلى مكان فلا بدّ أن ماريو هو

الأقرب إليه. ماريو فيفالدي، المحاسب، أو ما يعادل المحاسب في العالم الآخر. ما الذي يعادله؟ أهو الشهيد؟ أو الملاك؟

نعم لقد حانت ساعة الدموع ولم تكن الدموع لتنتهمر إن لم يُعد جوفائِي ابنه إلى الأرض ولم تتحرك عواطفه في حضرته.

ماريو لم يُعد في هذا الوجود ومن يؤدي غيابه؟ إنّه يؤدي جوفائِي وزوجته. لقد أصاب أماليا شرخ في دماغها بسبب الضغط العالي. وجوفائِي؟ ماذا أصابه؟

أحسّ جوفائِي بعينيّه تنتفخان ثم غطّتهما غشاوة. انتظر حتّى طفر الدمع من عينيه كي يستعيد قدرته على النظر. أخرج المنديل من وجهه ومسح به وجهه. بعد ذلك شعر بنُعاسٍ اختلطت فيه الأفكارُ وارتخت العضلات.

كانت العاصفةُ التي تدور في عقله قد بدأت تهدأ يتلوها سكونٌ مريح. خفّ وهج الصوّء الذي كان يبير أفكاره فجأةً ثمّ انطفأ كالسماء قبل حلول الليل.

لم يعد يفقه ما يدور حوله ولم يعرف كم من الوقت مضى وهو مرتخٍ تحت حائط التواييت. أيقظه وفاجأه تناوبه الذي ضجّ في المستودع بقسوةٍ تفوق قسوة كل أولئك الأموات.

بحث جوفائِي عن منديله الذي كان في يده فوجده ملقئاً على الأرض قرب قدميه فالتقطه وشدّ عليه في راحته. لم يحاول أن يركّز أفكاره مرّةً أخرى بل تتمم بصلواتٍ كان يعرفها، وإن كانت غير ذات معنى ولا علاقة لها بالميت لكنّها تمتاز بمعنى عام ويمكن حفظها عن ظهر قلب دون أن يُهمَل منها شيءٌ مهم، وهذا بالطبع لا يفوت الكنيسة وهي المؤلف النبيل لهذه الصلوات.

خرج من المقبرة واتّجه نحو سيّارته العتيقة، ركب وشغّل المحرّك

وخرج سائرًا إلى الخلف، ثم غمرته حركة السير بأصواتها المُصمَّة حتَّى بلعه تيار النهر التنكي الذي كان في الساعات الأولى للمساء يفيض ليغمر كلَّ شوارع المدينة ثمَّ ينتشر في الأرياف المحيطة حيث كان الليل قد حلَّ.

كان من الأفضل أن يفكَّر بأيِّ شيءٍ آخر. لكنَّه لم يفكَّر بأيِّ شيءٍ آخر لأنه لم يكن يفكَّر بأيِّ شيءٍ تقريبًا. في البيت قام بالطقوس المعتادة كلَّ مساء والتي بلغت ذروتها كالعادة بالمنبه الذي قرع في الساعة السادسة والنصف وبإشعال الضوء.

في الخارج ليل. في غرفة النوم ظلام. تحت جفون جوفائي والسيدة أماليا سواد.

تمرُّ الأيامُ متشابهةً متساوية: المكتب برائحة كريم الشعر ماركة لينتي، وأحياناً المحفل الماسوني ومبتدئ جاهل يجب تنويره، مرّتين في الشهر في دائرة الشرطة في محاولة التعرف على القاتل، بين الحين والآخر الذهاب إلى الكوخ عند البركة ليس لصيد السمك وإنما لإلقاء نظرةٍ لنلا يكون قد شبَّ فيه حريق.

وكذلك الأمور في البيت تسير كالمعتاد مع تغيّرات بسيطة: مثلاً لم يعد جوفائيّ يطبخ. عندما يعود من المكتب يمرُّ على مطعم ويشترى بعض فطائر الرز وقطعة من الجبن وقليلاً من الخبز. هذه الطريقة أفضل من الطبخ بالإضافة إلى أنه لا يلزم غسل الصحون.

البرّاد معطوب منذ زمنٍ بعيد وهذا كان السبب في التغيّر الطفيف الذي حدث في الحياة المنزلية. تضاغت رائحة التنن العابقة في الغرفة والمنبعثة من البرّاد المعطوب عندما وقعت على الأرض قارورة حليب مما أثار أعصاب جوفائيّ إلى درجة أنه قرّر أن لا يلمس أيّ شيء من ذلك الحين فصاعداً وترك كلّ شيء يسير من سيءٍ إلى أسوأ.

وبكلمات مقتضبة كانت الأيام تتلاحق كالمعتاد بانتظار اليوم الذي سيرسل فيه إضبارة طلب التقاعد إلى محكمة الحسابات. وفي أثناء ذلك يزداد الراتب قليلاً وهي ليرات قليلة تضاف إلى معاش التقاعد، وكلُّه دَسَم.

أما الدكتور سباتسياني والزملاء في المكتب والإخوة الماسونيين فقد نسوا مصيبة جوفائيّ وعادوا يعاملونه كما يعاملون أيّ واحد آخر منهم. من ناحية أخرى لم تكن آثار المصيبة التي لحقت به تظهر عليه بشكل واضح.

لقد تصرّف كرجل، ماضع رشده بل عاود حياته محتفظًا بكرامته.

كان جوفائني يعرف أسرار روحه وكانت الطريقة العادية التي عاودوا يعاملونه بها تزعجه. هل يعتقدون حقًا أنه اليوم كما كان قبل المصيبة؟ هل يمكن لرجلٍ مثله أن يقع في فخّ الحياة كما لو لم يكن قد حصل أيُّ شيءٍ في حياته؟

في الأوقات الأولى كان جوفائني يعتقد أنه قد صفّى الحساب، لم يكن يُدرك كيف كان ذلك ومتى، لكنّه كان يُدرك السبب. هكذا كان ينمو ويكبر في أعماقه شيءٌ يشبه رغبةً غريبة تكبر بدورها لتصبح قوّة لا سبيل لضبطها، تحتاج إلى التعبير عن ذاتها. لكن جوفائني لم يكن قويّ الإرادة كي يسمح لنفسه بالتعبير عن غرائزه التي لم تكن في الواقع ناميةً في أحشائه بل في رأسه.

في المكتب، عندما يتجمهر الموظفون عند طوتي ليشربوا القهوة ويتحدّثوا عن السياسة وعن أحداث الجريمة كان جوفائني يصبح المثل الحيّ للضحية، وبين الحين والآخر كان يتدخّل في الحديث بحكمةٍ تليقُ بالقديسين، وقد أصبح يُعتبر مرجعًا يثقون به. هكذا لم يكن زملاؤه يدركون مقدار العنف الذي يكمن في نفس جوفائني ولم يكونوا يُدركون أنه يُدرك ذلك.

لكنّه، في قرارة نفسه، كان طيبًا ويقوم بعمله خير قيام.

إذن، كان كل شيء يسير كالسابق في نفس جوفائني ولكنه كان يسير بشكلٍ مغاير في ذات الوقت.

قد يُلاحظ التفضيل الذي كان يحظى به كتعويض. لا شيء غير ذلك. ومن ناحيته فقد لبس هذا اللبوس بشكلٍ متقن فكان يبدو عابسًا بعض الشيء، معتدل القامة تحت سترته المحنيّة عند الكتفين قليلاً، وقد يتخذ أحيانًا سمات الرجل الحالم أو كمن مسّه الروح القدس. لكن مع مرور الوقت لم يعد محطّ اهتمام دائم فشعر باضمحلال دوره. عاد كتفاه للانحناء تحت سترته وعجز وجهه وبهت لونه كما في الزمن الماضي.

في عزّ بعد ظهر يوم سبعة وعشرين تشرين الثاني قرع جرس الهاتف في منزل فيفالدي قرعًا جنونيًا. كان جوفائي يقوم بتقسيم راتبه الذي أخذه ذلك اليوم: السكن والطعام، البنزين وتصليح السيارة، الكمبيالات.

بقيت بيده دراهم قليلة للمصروفات الثرية وبيده الأخرى تناول سماعة الهاتف. الرقيب تشاّبي يستدعيه إلى دائرة الشرطة فورًا لمحاولة تعرّف أخرى على المجرمين.

اقرب جوفائي من السيدة أماليا الناعسة على كرسي الخيزران في ظلام الممرّ وأيقظها برتب كتفها.
"يجب أن أذهب"، قال لها.

التقط واحدة من المعجنات من صينية الورق المقوّى وقربها من فم زوجته. مضغت أماليا قطعة الحلو بصعوبة وسال الكريم على ذقتها فأخرجت لسانها المدبّب ولحست بقايا الكريم حول فمها. تناول زوجها محرمة ورق ونظف ذقتها.

ثمّ جاء دور جوفائي ليلتلع قطعة حلويات ولم تكفه كل أسنانه فاستدعى إصبعة كي يساعدها في التهام القطعة.

تناول المعطف والمظلة ومفاتيح السيّارة ووضع نقود الراتب في جيبه وبحث عن منديل جديد بين الجوارب، ثمّ تأكّد من وجود مفاتيح البيت معه وقطع التيار الكهربائي وتناول مجلة الكلمات المتقاطعة من فوق المنضدة بجانب السرير وطبع قبلة على جبين زوجته وخرج من البيت.

عند باب العمارة، رفع جوفائي رأسه ورأى الغيوم السوداء الكبيرة

تقترب من بعضها لتغلق فتحات السماء الزرقاء. اكفهرت السماء وعمّ الدنيا جوّ قاتم.

"نحن متأكدون أن السيد المحترم الذي نبحت عنه هو واحد من هؤلاء السادة. أنتم قولوا لي من هو واتركوا الباقي عليّ"، قال الرقيب تشايبّي هذا وتنحّي جانباً كي يدع المجال للشهود كي يركّزوا أفكارهم ويتذكّروا.

تعرفّ جوفاّنيّ على القاتل فوراً فهو الثالث من اليسار.

إنّه هو بلا أدنى شك. دقّ قلب جوفاّنيّ بعنف.

لم يصدر عن الشهود الآخرين أيّ ردّ فعل فقد كان قد مرّ زمن طويل أو لعلّهم اعتادوا على الأمر كما لو تلقّوا لقاءً ضده.

لكنّ جوفاّنيّ تعرفّ على القاتل فوراً لأنّه قتل ابنه ولم يقتل أبناء الشهود الآخرين. منذ ذلك الحين كان ذلك الوجه قد ارتسم في أعماقه حتّى أصبح كعضو من أعضائه كالطحال أو الكبد أو القلب، أما في أعماق الشهود الآخرين فلم يرتسم شيء.

رآه متجهّماً يصرخ في زملائه. إنّه الثالث من اليسار، المجرم بعينه الذي انحسر عن وجهه القناع.

إنّه هو بعينه. إنّه شابّ، لعلّه في عمر ماريو نفسه، لكن لا بدّ أنّه من معدن مختلف، من معدن صدئ ومن التفل. كان يضع يديه عند عضوه وكأنّه لاعب كرة قدم يشكّل مع زملائه حاجزاً ضد الفريق المعادي. كان جفناه يرقّان تحت نور المصابيح القويّ فكان يدير رأسه بين الحين والآخر.

أصيب جوفاّنيّ برعب لا مبرّر له أمسك بخانقيّه، فبدأ يرجف من الخوف، ولو كان له ذنب لَلَّقَهُ بين ساقيه ولَخَبَّأَهُ تحت سرواله.

كان الرقيب تشايبّي ينظر إلى الشهود الذين يلفّهم الظلام بانتظار أن

تأتي منهم إشارة تدلُّ على أنَّهم مازالوا على قيد الحياة، فما سمع إلا أنين المقاعد تحت أُنْقَالِهِمْ وهم يتقلَّبون.

كان القتال بعينه واقفاً على خشبة المسرح الصغير يقوم بدور الشرير. لا بدَّ أنه قد طغى واستبدَّ كما شاء، لقد قتل بل إنه قَتَلَ رعاياه بالجملة ورمى جثثهم في المقابر الجماعية بعد أن استنزفهم بالضرائب والغرامات، لقد قتل الأمير الصالح واستباح ابنته الرهيفة، لقد استولى على عرش الملك واحتلَّ مكانه، هو، بهذا الفم الفاجر وهاتين اليدين المضرَّجتين بالدماء، احتلَّ مكان الملك كي يعربد، كي يتسلَّى، كي يلهو وكأنَّ حياة الناس لعبة مثل سائر الألعاب، لقد قتل ماريو، هكذا، على سبيل اللهو، ثمَّ عاد إلى بيته ثملاً.

حان الفصل الأخير الآن. لقد ألقى القبض على المحتلِّ الغاصب وعلى زبانيته وعادت الأمور إلى نصابها واستعاد الملك الصالح عرشه. تتلخَّص المسرحية كلها في نهايتها المحتومة: ينزل الستار بعد أن ينتصر العدل، والعدل يريد رأس الطاغية الغاصب.

الشرطة تبحث عمَّن قتل ماريو وتجده وتضعه على مرأى من جوفاثي. هذه هي الوقائع.

لكنَّ جوفاثي لا يرى إلا بعض البقع من الحقيقة، بقعاً من الوقائع شفافة كأنها خيالات قديسين في الجنة.

اعتراه خوف ورجفة كما يعتريانه إذ يشاهد فيلماً من أفلام الرعب ولكنَّه لم يكن في السينما هذه المرَّة.

في الغرفة الصغيرة في دائرة الشرطة أطففت المصابيح الكاشفة وأضيت الأنوار واستطاع جوفاثي أن يتحلَّى بالأدب فلم يصفق.

ولكن لماذا لم يصفق؟ الجواب بسيط، لأنَّ العرض لم ينته فقد انقطع الشريط قبل المشهد الأخير وحيث أن جميع الحاضرين يستطيعون

أن يتصوّروا كيف تكون النهاية فقد قرّر العارض أن يضبّ أدواته ويعود إلى بيته.

ماذا يريد جوفائني؟ هل يريد أن يستلّ الشرطي مسدسه في اللحظة التي يتعرف فيها على الجاني ويقتله في الحال؟ لا، يجب أن تأخذ العدالة مجراها.

يجب أن تأخذ العدالة مجراها ويقع على عاتق جوفائني تشغيل الآليات البيروقراطية اللازمة لذلك: رفع الدعوى، التحقق من أدلة الدفاع، التحقيقات، المحاكمة، الاستئناف وإلى كلّ ما هنالك وصولاً إلى الحكم: السجن المؤبّد. إنه ليس العقاب الأمثل، لكنّه بالتأكيد عقاب شديد.

لكن في الواقع، بعد أن أضيئت الأنوار، تمامًا كما يحصل في السينما، قام الشهود من مقاعدهم وهم ينظرون إلى ساعاتهم وقد عادوا فوراً إلى عالم مشاغلمهم اليومية.

أمّا الرقيب فقد تحوّلت ثقته بشهوده إلى قناعة بعدم جدواهم ولم يوجّه لهم حتّى السؤال المعتاد بل خرج فوراً من الغرفة.

بقي جوفائني جالساً في مكانه ينظر إلى من يتحرّك حوله ويردّ على السلام والابتسام دون أن يستطيع أن ينطق بكلمة واحدة.

لقد مرّ كلّ شيء بسرعة كبيرة لم يستطع فيها أن يعيد وضع البراغي التي انفكّت في عقله. وهكذا بعد أن ذهب الشهود والمشكوك فيهم والقاتل بقي جوفائني وحده في الغرفة جالساً على مقعد كان يتمنى أن يكون متحرّكاً.

فجأة اجتاحتها طاقة كبيرة فهبّ واقفاً وخرج راكضاً إلى الشارع.

الثالث من اليسار، وهو لا يعرف حتّى اسمه، أحد قتلة ابنه يمشي وتحت قدميه عالم كبير هائل يعبره ماشياً أو بالسيّارة، فيه المروج الخضراء والغابات الواسعة والشواطئ البيضاء والسماوات المتغيّرة بتغيّر الفصول.

رآه عند المنعطف في شارع "ناتسيوناله" ينتظر الباص. ركب سيارته وقد ازداد خفقان قلبه حتّى أصبح كالمكوك يصعد ويهبط من رأسه إلى قدميه.

سار بالسيارة بضعة أمتار ثمّ توقّف في مكان يستطيع أن يراقب منه تحرّكات القاتل. جاء الباص الأول ثمّ الثاني ولم يصعد القاتل، ثمّ وصل الباص الثالث فصعد، فسار جوفائي خلف الباص موقفاً بعد موقف. رعد مفاجئ شقّ صمت السماء، دوى كأنّ عمدان السماء قد انهارت، وهطل مطر غزير فاختمى المارة وكأنهم سمعوا صفارة الانذار باقتراب القصف الجوي.

في لحظة واحدة سالت أنهار من مياه الأمطار على أسفلت الشوارع وعلى العمارات. شغل جوفائي المساحات وانحنى بظهره كي يقترب أكثر من زجاج السيارة فلا يفقد الباص الذي يتعبّه.

كان الباص يسير باتجاه منزل جوفائي فقد انعطف في شارع "توسكولانا" والمجرم لم ينزل منه بعد.

اضطرّ جوفائي أن يتجاوز عدّة سيارات كي يبقى دائماً خلف الباص، بينما كانت كميات كبيرة من ماء المطر تنطلق من عجلات الباص وتصطدم بزجاج السيارة، وكان جوفائي لا يستطيع أن يرى بوضوح فيضغط على الكابح كلّ مرّة يُخَيِّل له أنّه رأى الأضواء الحمراء للباس تشتعل علامة التوقّف.

كان يقف عند كلّ موقف ويُنزل زجاج النافذة ويُطلُّ برأسه غير عابئ بالمطر الغزير كي يراقب أيّ تحرّك للقاتل. وعندما يسمع صوت إغلاق أبواب الباص يعود برأسه داخلاً ويرفع الزجاج ثمّ ينشّف رأسه بمنديله. استمر على هذه الحال حتّى وصل الباص إلى آخر موقف. نزل كلّ الركاب ونزل القاتل أيضاً. لو لم يكن بينهما ذلك الدم لأوصله جوفائي إلى

بيته فهما يسكنان قريبًا.

ركض المجرم الشاب واحتتمى من المطر عند مدخل إحدى العمارات قريبًا من موقف الباص. أوقف جوفائني السيارة عند الطرف الآخر من الشارع وأطفأ المحرك كي لا يبقى دون وقود.

لم يتوقّف المطر بل استمر ينهمر بإيقاع سريع منتظم يضرب بقوة أسفلت الشارع، كما لو ألقى به بوقّ تنفخ به رتتان مليئتان. قبع جوفائني في سيارته وقد ألصق وجهه بزجاج النافذة ينظر منه باتجاه هدفه.

أخيرًا حسّم المجرم أمره وركض محتميًا بمدخل العمارات بين فينة وأخرى. شغلّ جوفائني محرك السيارة ولحق به. من مدخل إلى مدخل وصل المجرم إلى منزله في عمارة جديدة ما تزال غير مسكونة بالكامل، إلى جانب محلات "أوييم"، تجاه منزل جوفائني تمامًا.

صعد الشاب الدرج كلّ ثلاث درجات سوية واختفى.

أوقف المقتني السيارة أمام ذلك المنزل وأطفأ المحرك وقبع ينتظر.

"إنّه يسكن مقابل بيتي تمامًا"، فكّر جوفائني: "ما أغرب الحياة".

انزلق جوفائني قليلاً على مقعده ونظر إلى أعلى فرأى نوافذ منزله مغلقة والمطر ينقرها بغضب.

أماليا داخل المنزل، زوجته الوفيّة، الزهرة التي وضعها في عروته كلّ السنوات الهامة في حياته. أبذرت الزهرة واشتدّ عودها وهاهي تواجه الموت بحكمة، بحكمتها المعتادة، ثابتة لا تتحرّك. إنّها سجينه تلك الصومعة ولسان حالها يقول إنّها تركت كلّ ما تملك إرثًا لغيرها وتلقّت البركة الأخيرة وصمتت.

كان جوفائني ينظر إلى نوافذ بيته المغلقة فيراها تبرق تحت زخات المطر المتموجة كما لو كانت من مخمل أو كأنّها شعر عبثت به الريح.

بعد أن أطفأ المحرّك أصبحت السيّارة باردة وعبقت بأنفاس جوفائني، فغيش زجاج السيّارة فمسح جزءاً منه على شكل مربع صغير كي ينظر من خلاله ليراقب مدخل العمارة التي يسكن فيها القاتل.

حلّ المساء فجأة بعد أن قفز على صفحة الغروب دون أن يقرأها والغروب نادر في ذلك الحيّ ومستحيل في ذلك الجوّ العاصف.

رفع جوفائني ياقة معطفه وكان بين الحين والآخر يدقّ بقدمه على أرض السيّارة التي تجمّعت فيها مياه المطر نقطة تلو نقطة. تكوّم جوفائني قابعا في سيّارته وفكّر بالطوفان وبنوح بينما كانت العاصفة تشتد...

بدأت عظامه تنقر ظهره وجوانبه. كان يشعر بها كسيّاح مليء بالشوك.

المقعد الخالي الممزّق بجانبه ولوحة السيّارة أمامه ويد الغيار المهترئة كانت تروي له حكاية حياته في السنوات الأخيرة. كانت تلك السيارة بيته الآخر الذي يملكه، لقد اقتناها بعد تضحيات جسام ضحى بها كي تكون مفيدة له. لقد أفلّته على الدوام من المنزل إلى المكتب ومن المكتب إلى المنزل. في السيّارة بكى وهو ينتقل من مصيبة إلى أخرى، وفي السيّارة ابتسم وضحك في لحظات الفرح والسرور، وفي السيّارة حلم وهو ينتقل من مرحلة إلى أخرى خلال رحلة عمره الطويلة التي لم تنته أمام مدخل منزل القاتل. السيّارة كلبه الوفيّ وكالكلاب تعيش وفيّة لصاحبها وبمعزل عن مشاكله ومصائبه، إنها دائماً تحت تصرّفه لكنّها لا تستطيع أن تقدّم له النصح فهي صامته ومتواضعة مثل أماليا ومثلها حنون لكنها في عزلة عنه.

هذه هي الأشياء القريبة من جوفائني، ومن المقرّبين إليه أشخاص عديدون من ذوي النّيّات الحسنة، الدكتور سباتسياني الذي عمل كلّ ما في وسعه لمساعدته، زملاؤه، الأستاذ الخطيب المستعدّ دائماً لتقديم النصح وتخفيف المشاكل بوضعها في أطر عامة تتعلق بكلّ بني الانسان وتبيان حكمة الأشياء. يستطيع كلّ هؤلاء أن يساعده وقد ساعده ولكن كان

فيهم شيء يوحي بالعَرَضِيَّة فلا يمكن الاعتماد عليهم بشكل مطلق.
السيارة الآن لا تعطيه الكثير ولكنها تعطيه كل ما في وسعها. لقد
حملته في رحلته لتعقب القاتل بطاعة واحترام كما أطاعته عندما بقيت
مركونة أمام محلات "أوبيم" صباح اطلاق النار أمام مصرف الرهونات.
مدَّ جوفائي يده إلى مفتاح الضوء الصغير في سقف السيارة وأشعله
ثم أخرج من جيب معطفه مجلة الكلمات المتقاطعة ومن جيب جاكيتته
النظارات وقلم رصاص. بدأ بحلّ الكلمات المتقاطعة وينظر بين الحين
والآخر من فوق نظارتيه صوب المنزل الذي يراقبه.

عند منتصف الليل خَفَّ المطرُ ثُمَّ تَوَقَّفَ في الساعات التالية.
رأى جوقائني شبحًا يخرج مسرعًا من العمارة فأشعل أضواء السيارة ثُمَّ
أطفأها على الفور فقد تَعَرَّفَ على القاتل. أين يذهب في مثل هذه الساعة
من الليل؟

اقترب الشابُّ من سيّارة "سبور" وبحث في جيب معطفه عن
المفتاح، ركب السيارة وأدار المفتاح. لا شك أن المحرِّك كان باردًا ولا
بدَّ أن قليلاً من الماء قد دخل إليه.

جرَّب مرّة ثُمَّ أخرى دون فائدة.

كانت محاولات تشغيل السيارة تترك في الصمت المخيم على الحيّ
صدىً يرجع بعد أن يصطدم بشرفات المنازل.

كان جوقائني ينظر من سيّارته العتيقة الوفيّة وهو يُعدّد في عقله أسباب
ذلك العطل. نزل المجرم الشابُّ من السيارة وفتح غطاء المحرِّك وبدأ
يلمسه هنا وهناك.

نزل جوقائني أيضًا من سيارته ورفع غطاء المحرِّك وتناول منه رافعة
العجلات وخبّأها تحت معطفه ثُمَّ اقترب من القاتل.

"ماذا حصل؟ هل أستطيع أن أساعدك؟"

التفت المجرم ولم ترَ عيناه إلا بريقًا خاطفًا وأحس بالدم يغطي وجهه
قبل أن يغمى عليه.

لقد ضرب جوقائني ضربة صائبة بين الجبهة والصدغ. عاد مسرعًا إلى

سيّارته وألقى الرافعة فيها وأدار المحرك وسار بها الأمتار القليلة التي تفصله عن القاتل. أطفأ المحرك والأضواء وأمسك بالشاب من تحت إبطيه وسحبه بقوة لم يكن يعرف أنه يحوزها ورماه على وجهه على المقعد الخلفي فبقي نصفه داخلاً ونصفه خارجاً.

خلع عنه معطفه ودفعه الدفعة تلو الدفعة حتّى أدخله تماماً ثم غطاه بالمعطف نفسه وأغلق الباب. ركب السيّارة وأدار المحرك الذي تلكأ قليلاً ثم انطلق.

تحركت الفيات القديمة وهي تطفق وتتهتز وسارت في طريق فرعيّ نحو خارج المدينة.

مشت السيّارة بسرعة إلى أن أضيئت الإشارة الحمراء التي تشير إلى قرب نفاذ الوقود.

"بعد قليل توجد كازيّة مفتوحة"، فكّر جوفائني وهو يضع الغيار على الصفر كلّ مرّة يجد فيها منحدرًا بسيطًا في الشارع.

بعد قليل لمح من بعيد أنوار محطة وقود مفتوحة بعد منعطف الشارع. كبح السيّارة وخرج من الشارع رويدًا رويدًا وأوقفها تحت شجرة.

نزل وفتح صندوق السيّارة وتناول منه قارورة كبيرة من البلاستيك وهمّ بالسير نحو المحطة. إلا أنه خطا خطوة واحدة فقط. "إن استفاق؟"، فكّر وبلع ريقه ودارت عيناه في محجرّيهما.

لمزيد من الحيطة والحذر أمسك برافعة العجلات مرّة أخرى وهوى بها مجددًا على رأس القاتل الذي لم يُبدِ أيّ ردّ فعل.

وضع جوفائني الرافعة جانبًا وقد اطمأنّ ثم مشى.

عبأ جوفائني القارورة وعاد إلى السيّارة وأفرغ الوقود في الخزان وانطلق بسرعة.

مشى بسرعة حتّى وصل تقاطع طرق يعرفه فانعطف إلى طريق ترابيّ

دون أن يضع الإشارة. كان الطريق موحلاً وعراً وبين الحين والآخر كانت السيارة ترتطم بأحجار الطريق التي تفتح فيها شروخاً كبيرة.

أخيراً رأى جوفائني القمر منعكساً في البركة: لقد وصل وسيظهر له كوخه بعد لحظات. وهكذا كان. بان الكوخ فدخل جوفائني درباً معشوشباً سار فيه إلى أن وصل إلى الباب. كان يريد أن يجعل من ذلك الكوخ منزلاً كبيراً ذات يوم. من يعلم؟ فكل شيء ممكن في هذه الدنيا.

حمل جسد القاتل المدمى ودخل به ثم أضاء بضع شمعات. شعر فجأة بحاجة إلى التبول وانتبه حين ذاك أنه أمسك نفسه طويلاً، أزاح الغطاء الذي وضعه بدل باب الخزانة المهشمة وتنفس الصعداء بين شهيق وزفير وهو يرخي عضلات مثانته ويفرغها حتى آخر قطرة. أحس برعشة برد في ظهره وخرج وهو ما يزال ينفض قضيبه.

كان الحيوان الشاب يتنفس ويطلق أنيباً بين الحين والآخر. كان جوفائني قد ألقاه على الأرض بالقرب من الباب، بعد أن أغلقه بالمفتاح.

أمسك بكرسي ووضع في وسط الغرفة إلى جانب العمود الخشبي الذي يحمل السقف ثم أخرج علبة الأدوات من تحت السرير وأخذ منها الكماشة ثم تناول ربطة سلك معدني معلقة بمسار على الحائط.

ثم قام بالجهد الأخير وسحب جسم القاتل من ذراعيه، واستطاع بعد مشقة أن يضعه على الكرسي، ثم ربطه بالسلك المعدني وربط يديه وقدميه على ذراعي الكرسي وعلى قوائمه. لفّ السلك عشرات المرات وشده قدر استطاعته ثم قطعه بالكماشة وعقده.

بعد أن انتهى من هذه العملية بدأ عملاً آخر يتطلب مزيداً من الانتباه. غسل يديه جيداً ونشّفهما بروية ثم أخرج علبة الإسعاف من تحت السرير وأخذ منها زجاجة الكحول والقطن وبدأ يمسح الدم عن وجه القاتل بصبر وترو كما أنه يقوم بترميم لوحة فنيّة.

نعم إنه هو بعينه.

عالج أيضًا الجروح في رأسه. كان فيه جرحان كبيران لكنهما غير عميقين فوضع عليهما كمية من الكحول وغطّاهما بالشاش واللاصق. أطلّ الصبح. فتح جوفائي الباب ونظر إلى الطبيعة. لم ير شيئًا سوى الضباب الكثيف المتجمّع كلّه عند البركة. أنعشه هواء الريف الصباحي. نظر خلفه وأدرك أنّ القاتل الشابّ لن يصحو من غيبوبته إلا بأعجوبة. هزّ رأسه ورفّ بأجفانه ثمّ خرج وأغلق الباب بالمفتاح. عاد الى السيّارة وكان داخلها مايزال دافئًا ومحركها ساخنًا فقد اشتغل من المرّة الأولى.

كان "البازار" - هكذا كان يسمّيه الجميع - قريبًا. يكفي الخروج من الشارع والانعطاف إلى اليسار مرّة أخرى إلى أن تصل إلى كشك هو بيت ودكان بنفس الوقت حيث يمكن شراء أي شيء من أدوات العمل إلى البذور والفواكه والخبز وفيه أيضًا منصّة تقوم مقام مقهى. كان بمثابة واحة وسط الخلاء يأتي إليها الجميع على درّاجاتهم العاديّة أو الناريّة.

عندما أوقف جوفائي السيّارة في الفضاء الصغير أمام الكشك خرج من الباب جماعة من الصبية يجتمعون هناك كل صباح بانتظار الباص الذي يأخذهم إلى روما حيث يفترقون، فمنهم من يعمل في ورشات الميكانيك أو ورشات البناء وفي المحلات أو في الأسواق ينظّفون السمك. كادت عصابة الصبية أن تجرفه معها لكنّها خلّفته وراءها.

وصلت العصابةُ الطريق العام فانتظم الصبية في صفّ طويل على طرف الشارع وساروا وهم يغنون بأعلى أصواتهم إحدى أغاني برامج الأطفال التلفزيونية.

دخل جوفائي "البازار" وسرّته رائحة القهوة ورائحة النشارة التي تغطي الأرض، فقد كان رواد المقهى القلائل يسعلون ويصقون بعد أن

يستخرجوا جيداً كل ما في حوصلاتهم. طلب جوفائني سندويتشة جبن وفنجان قهوة مع الحليب وجلس في زاوية بانتظار ما طلبه.

تناول الفطور وهو يراقب ما يجري حوله وينظر نظرة تتراوح ما بين نظرة الراهب فاعل الخير ونظرة الفتان الفاطن إلى أمور الدنيا ونظرة الخبير المتفحص للظواهر. لم يكن يريد أن يفكر بنفسه. كان متعباً. ومن ناحية أخرى كان الداخولون والخارجون يشكلون مزيجاً إنسانياً يجلب النظر إلى ما هو عليه قلباً وقالبا، فهو بعيد كل البعد عن تطورات الحضارة المعاصرة. كان يرى في ذلك المزيج البشري أشباح ماضٍ سلف منذ خمسين سنة، نماذج من عرق بشري عاش قرونًا طويلة لكنه آل إلى الاندثار.

كان جوفائني وهو يراقب الأصناف البشرية في عالم البازار الضيق يعلم أنه قد سبق ذلك العالم بضعة سنتيمترات أو بكلمات أخرى بعدة سنوات من الحضارة.

تأخر الوقت. يجب أن يذهب. عاد بفكره إلى المكتب وإلى السيّدة أماليا المسكينة فقد بقيت دون عشاء ودون فطور. عاد مسرعاً إلى الكوخ وفي الطريق لاحظ أن مشهد الطبيعة لا يتغير بتغير الفصول وتغير أحوال الطقس فحسب بل يتغير بتغير مزاج من ينظر إليه وتغير حالته الصحية والسرعة التي يمرُّ بها أمامه.

لم يكن جوفائني في حالة تسمح له بالإحساس بالطبيعة فَمَرَّ بها سجيناً في سيارته الصغيرة القديمة وعيناه متعلقتان بحفر الطريق الترابي.

وجدته كما تركه في قسوة الواقع، وليس في وهم الخيال، مربوطاً بالسلك المعدني إلى الكرسي ورأسه مرمي على صدره ونفسه الثقيل متقطّع.

شعر برغبة في لمسها فاقرب منه ومسّ شعره.

نظر إلى ساعة يده. الوقت متأخر. داهمته اللهفة: المكتب.

أخرج من جيب سرواله منديله الأبيض، طواه وجمعه في قبضته
ثم فتح فم المجرم الشاب وأدخله فيه بقوة ودفعه بإبهامه. قطع خمسين
سنتيمترًا من السلك المعدني ولفّه حول رأسه ومرّره في فمه المفتوح ثم
ربطه عند رقبته وعقده بالكمّاشة وأحكم شدّه.

تلّفّت حوله ليرى إن كان كلُّ شيء في مكانه، ثمّ خرج وأغلق الباب
وأدار المفتاح فيه كلّ الدورات الممكنة.

وضع المفتاح في جيبه واتّجه نحو السيارة.
"سأصل بسرعة".

وصل إلى المكتب متأخر كبير واحتج بصحة زوجته. لم يكذب فقبل أن يذهب إلى المكتب مرّ على البيت كي يطعم السيدة أماليا. بلغ الدكتور سباتسياني حجة جوفائي بوجه ممتعض ووضع على مكتبه مجموعة كبيرة من المعاملات.

أمسك جوفائي المعاملة الأولى وتفحص حالة طالب التقاعد وتأكد من وجود الصور الشخصية وكلّ الوثائق اللازمة ثم تناول ورقة وقلماً وكتب: ينال السيد فلان الفلاني استحقاق التقاعد ويحق له مخصّصات المعاش كما هو منصوص عليه في الإضبارة وكما هو مسجّل في محكمة الحسابات في الإشعار رقم ٧٤٢٨١٠٤٣ إلى آخره، إلى آخره.

كان يعمل ويعود بفكره إلى أيام شبابه عندما بدأ العمل في هذا المكتب ولم يكن يعرف معنى "مخصّصات المعاش" فكان يكتب "مخصّصات المعاش" ظاناً أنها جائزة معنوية.

لقد مرّ زمان طويل منذ ذلك الحين وحدثت أحداث كثيرة وهو ما يزال هناك يقوم بواجباته الحيوانية وغير الطبيعية تلك، بعزم وتصميم لم يرغب أن يكونا لديه.

عجب من حجم العمل الذي كان يقوم به بعزم الشباب، رغم أنه أمضى الليل دون نوم، واستطاع أن يُسلم قبل المعتاد كلّ الملفات إلى الدكتور سباتسياني مع كلّ المعطيات المطلوبة بعد ضبط كلّ الحسابات وإنهاء معاملات كلّ إضبارة.

"عزيزي فيغالدي، بعد قليل سيأتي دورك وسيخسر هذا القسم واحداً

من أمتن عمدانه. الجيل الكبير يغادر العمل! لست أدري ماذا سيحلُّ بنا"، قال سباتسياني وهو يؤرّجح رأسه وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة مُرّة ولمع في عينيّه بريق الشماتة الشرّير.

من المكتب إلى المطعم ثمّ إلى البيت للأكل ولإطعام السيدة أماليا. كانت أحوال السيدة أماليا على ما هي لا تتحسّن ولا تسوء.

بين لقمة وأخرى قال جوفائيّ لزوجته إنّه أمسك بقاتل ماريو وإنّه قد أخذه إلى الريف. لم يكن يعرف ماذا يريد أن يفعل به ولكنّه سيفكرّ بالأمر فلديه متّسع من الوقت. أكل بسرعة فهو يريد أن يلحق بفريسته بأقصر وقت. كانت السيدة أماليا حبيسة جسدها المشلول تستمع إليه وتُدبر عينيها في محجزيهما وتكلّم بلغة المورس. لم يكن زوجها ينتظر منها ردّاً فاستمرّ في سرده دون أن ينظر إليها.

لم يعد ينتبه إلى أيّ شيء في ذلك المنزل فلم يكن ينتظر أن يحصل أيّ شيء هناك لا خيرًا ولا شرًّا، لا منه ولا من زوجته، فقد اعتاد على التغيير الذي وقع في المنزل كما تعاد القدم على الحذاء الجديد.

خرج جوفائيّ وركب الفيات القديمة وانطلق مسرعًا نحو الريف. سار على الطريق الذي سار عليه في الليلة الماضية ذهابًا وفي صباح ذلك اليوم إيابًا.

كانت السيارة تنساب بهدوء على شريط الشارع الأسود الذي اعتاد عليه جوفائيّ.

"بعد قليل حاجز الضرائب القديم، بعد بضعة كيلومترات محطة الوقود، بعد المنعطف إشارة الوقوف، بعد المقبرة الطلوع..."

كان يسير هكذا، نقطة ثمّ نقطة، ويداه مرتختان على المقود وكتفه متّكئة على النافذة بينما أخذت أشباح الأشجار والتلال تتلوّن بلون الأرض

وأمسى نور السماء يميل إلى الزرقة.

بين الغابات وفي الوديان كان يسير بالسيارة جانب أراضٍ مهجورة هنا وهناك برفقة هدير المحرك.

كانت تتقاذف أمام عينيه وكأنها تهوي على رأسه، كأطفال يلعبون، إشارات المرور ومقصورات الكهرباء وعوارض ممزّات السكة الحديدية المرفوعة وأغصان الأشجار المتدلّية على أطراف الشوارع.

من بعيد كانت تبدو الأدوات الزراعية مغروسة في الأرض وقد علاها الصدا، ثمّ الدور الزراعية، وهنا وهناك بقرة هزيلة، وكانت كلُّ الأشياء تبدو وكأنّها تتجه نحو روما، ينقلها بساط متحرك رويدًا رويدًا.

عندما أوقف السيارة أمام ذلك الكوخ الذي يملكه توقّف كلُّ شيء أمامه. ترجّل وأحسّ بقلبه يركل قفصه الصدري بعنف ويطلب منه أن يعود أدراجه.

بقي واقفًا ينظر إلى باب الكوخ ويتفحص الموقف.

لم يتردد، تناول رافعة العجلات من تحت مقعد السيارة وأخرج المفاتيح من جيبه. فتح الباب ودخل واضعًا ذراعه أمام عينيه كمن يتقي انهيار جدران الكوخ عليه.

القاتل مازال هناك، طبعًا، ومازال مربوطًا بإحكام إلى الكرسي، لكن الكرسي لم يكن في مكانه، فقد استطاع الشاب في لحظة استفاق فيها من غيبوبته أن ينحني إلى الأمام ويقع على الأرض ثمّ يجرّ نفسه بضعة أمتار والكرسي على ظهره وكأنّه بيت السلحفاة، لكنّه لم يستطع أن يفعل أكثر من ذلك، فهاهو ملقى على الأرض تعتريه الحمى خائر القوى بين علب الدهان الناشف.

اقترب جوقائيّ بحذر شديد ولعلّه بالغ بحذره نظرًا للفارق الكبير بين القوى.

انتفض القاتل فجأة وتحشرج وفتح عينيهِ ليرى بريقاً كذلك البريق الذي رآه وغطى وجهه بالدم وأفقده وعيه.

لقد خبطه جوفائي خبطة أخرى أصابته ملء وجهه فتدفق الدم غزيراً أصاب يد جوفائي. لم يهتم جوفائي بالأمر بل أمسك بالكرسي من قوائمه وسحبه عند العمود حيث وضعه في الليلة السابقة ثم رفع الكرسي فتلوث قميصه وجاكيته. كان الدم ينهار من أنف المجرم المهشم أحمر قانياً.

قطع جوفائي متراً آخر من السلك المعدني وأمسك برقبة الشاب وربطها بالعمود وأدار السلك حولهما ثلاث أو أربع دورات ثم عقده بالكماشة بإحكام، وكلما شد السلك ازداد وجه القاتل انتفاخاً وقد خنق السلك أوردة عنقه.

أخيراً توقّف جوفائي.

كاد الشاب أن يختنق فلا يستطيع أن يتنفس إلا بصعوبة من أنفه، فالدم يكاد يخنقه فيخرج من منخربيه بفقااعات حمراء، والسعال لا يجد منفذاً فيحاول النفاذ من العينين.

نظف جوفائي أنف الشاب بالقطن والكحول وأرخى من شدة السلك قليلاً.

تلون وجه القاتل بألوان لا إنسانية تتناوب فيه بقع صفراء، بنفسجية، زرقاء بلون البحر العميق تظهر وتغيب، وعند الشهيق يتسع المنخران حتى يصبحا غشاءين رقيقين، وبرزت عروق رأسه حتى بان كل تفرعاتها وانفجرت الشعيرات عند عظمتي الوجنتين فشكّلت بقعة داكنة واسعة. اعترته فجأة نوبات اختلاج واضطراب وتشنّج كمن مسّه تيار كهربائي. أخيراً استقرت حالته: غاب عن وعيه وبدأ وجهه يتخذ شكلاً قريباً من شكل الانسان.

تنفس جوفائي الصعداء ونظر إلى حالته، كانت يدها ملوّثتين بالدماء

وكذلك قميصه وسترته. سينظف كل شيء بهدوء وعناية. خلع سترته ثم أمسك باسفنجة قديمة، غسلها وفرك بها سترته ثم وضعها على السرير لتنشف، ثم بدأ بتنظيف قميصه دون أن يخلعه.

بعد ذلك جعل يرتب مستودع القاذورات ذلك كرّة بيت ماهرة. وأصلح قائمة طاولة مكسورة ورجل مقعد كذلك.

جلس ووضع نظارته على عينيه وأمسك بالقلم الرصاص ومجلة الكلمات المتقاطعة وبدأ بحلّها.

ساد الصمت لا يقطعه إلا سعاله من حين لآخر وحشرجة القاتل ودقات الساعة. كانت تلك دلائل الحياة في ذلك المكان.

مرّت بضعة أيّام وبضع ليالٍ. المكتب ثمّ البيت والقلق دائم. أيام وليالٍ لا تاريخ لها، فارغة.

في المرة التالية دخل الكوخ بثقة، أغلق الباب واقترب من القاتل: مازال يتنفس. أمسك بالكُمّاشة ورويدًا رويدًا أدار السلك الحديدي الملتفّ حول عنق الشاب نصف دورة أخرى. انقطع شخير لهولة ثمّ عاد أكثر حدّة وأقلّ تسارعًا وأثقل وقعًا.

نظّف جوفائيّ المكان وربّبه ووضع الأشياء التي أحضرها من المنزل في مكانها الجديد، استبدل الفرشة العتيقة بفرشة جديدة. استلقى على السرير يستريح عشر دقائق ثمّ غيّر بطارية ساعة الحائط وألقى نظرة أخيرة وانطلق عائداً إلى بيته.

تتابعت الأيام على هذه الوتيرة لفترة والقاتل لا يموت.

بعد بضعة أيام أصبح الذهاب إلى الريف عودة منه والعودة منه أصبحت ذهابًا.

أصبح يُكلّم زوجته بشكل أقلّ دائمًا وبدأ يُكلّم القاتل بشكل أكثر، والمتكلّم دائمًا هو وحده.

أصبح له معارف جدد في البازار.

مرّت الأيام باعتياد هادئ: المكتب والبيت والدكان! المكتب هو نفسه كما كان دائمًا، البيت أصبح كالدكان، أما الكوخ في الريف فقد أصبح بمثابة البيت.

بضع معاملات في المكتب، غذاء خفيف وعشاء خفيف ونصف
دورة لشدّ السلك المعدني حول عنق القاتل. يوم الأحد راحة مع أماليا
ومع الكلمات المتقاطعة.

ذات يوم بينما كان جوفائي يخطّط لترتيب الحديقة حول الكوخ
بزراعة أشجار ونباتات خفّ تنفّس الضحيّة شيئاً فشيئاً كلعبة تتوقّف شيئاً
فشيئاً عندما يرتخي الزنبرك. كان جوفائي خارج الكوخ يقوم بجولة تفقّديّة
وعندما انتبه إلى حلول الظلام عاد إلى الداخل.

نفض الغبار عن ملابسه ولبس سترته وقبل أن يذهب اقترب من القاتل
ولمسه: كان بارداً كصفيحة معدنيّة.

"لقد مات"، قال لنفسه.

أحسّ بركبتيه تخونانه فوق جالساً على السرير حيث بقي طويلاً دون
أن يتحرّك. ثمّ بدأ بالنشيج، بكى وبكى من رأسه حتّى قدميه.
انتبه فجأة لدموعه فناح بشكواه وأطفأ في أحقاد الانفعال الذي دفعه
إلى البكاء.

بقي له شيء واحد يفعله، شيء عادي جداً في هذه الدنيا.

في الظلام قطع السلك المعدني الذي يربط الحثّة إلى الكرسي وإلى
العمود.

خرج وقد تكوّر حتّى أصبح صغيراً صغيراً كمنملة وذهب إلى جانب
البركة ليحفر حفرة.

عاد وسحب الميّت من رجليه خارجاً حتّى الحفرة. قبل أن يدفعه
إليها نظر إلى وجهه للمرّة الأخيرة: كان أشدّ بياضاً من القمر الذي يضيئه.
"غريب"، فكّر: "كلّ الأموات يبدوون عجائز، مهما كانت أعمارهم.
كلّهم عجائز".

ثمّ أهال التراب عليه وشرع يتقافز ويخبط الأرض بقدميه ويحاول

تسويتها قليلاً، ثم عاد مسرعاً إلى الكوخ.

دون وعي منه أبعاد الفوضى التي كانت تعم المكان قبل المغامرة. كسر رجل الطاولة التي كان قد أصلحها ورجل المقعد كذلك ونقل الأشياء من أماكنها وقلب العلب الفارغة ونزع البطاريات من الساعة. ركب السيارة العتيقة كمن يريد وداع العالم كله وليس كمن يعود إلى بيته.

انطلق دون أن يدع المحرك يسخن قليلاً وسار بسرعة بين حفر الطريق الترابي وأحجاره.

كان الليل مازال مخيمًا لكنَّ حدة الظلام شابتها بوادر حقيقة الصبح التالي فبدت رؤوس مداخن المعامل المهجورة، وبعد انعطاف دائري بدت أكواخ قائمة مبعثرة في السهل الذي كشفه بدء انجلاء الظلام وجلاء السماء.

عظامه في مكان دافئ ولحمه بارد وعيناه مسلوقتان. في الطريق نحو المدينة، بوعي أو دون وعي، بتمعُّن أو دون تمعُّن، راغبًا أو غير راغب، بدأ يقتنع أنه قد نجا من وضع كان من الممكن أن يسوء إلى أسوأ.

لكنَّ الوسواس كان يوسوسه كلما ابتعد أكثر عن الكوخ واقترب من المدينة: هل قام بالعمل جيدًا عند البركة؟ ألم يدفن الميت قريبًا من السطح؟

إن مرَّ كلب من هناك فيكفي أن ينبش قليلاً حتى تظهر جثة الميت. كاد جوفائني أن يموت عندما عنت له تلك الفكرة ولكنه لا يستطيع أن يعود أدراجه فهو غير قادر بتاتاً على ذلك وليست لديه القوة لذلك ومن ناحية أخرى يجب أن يذهب إلى المكتب!

"سأعود في الأيام القادمة، في أقرب فرصة، عندما أكون هادئ الأعصاب، سأقوم بعمل مرتب مئة بالمئة!"

ذهب إلى المكتب وهو في اضطراب. في المصعد امتدَّت إليه يد
برزت عروقتها، هزَّته من كتفه وأعادته إلى أرض الواقع.
"مرحبا فيقالدي". كان ذلك صوت زميل يبدو كالجنة لشدة هزاله،
وقد تدلَّى من تحت عينيه كيسان من الدهن ونزلا على خدَّيه كشرابتين.
"مرحبا سويينو كيف حالك؟"

هزَّ رأسه ولسان حاله يقول: "حالي مصيبة"، ثمَّ اقترب من أذن
جوفائتي وهمس له: "عليَّ أن أدفع كميالية حان وقت تسديدها"، ونظر
إلى زميله يترقَّب ردَّ فعله وهو مفعم بالأمل واليأس معًا.

كان جوفائتي ذلك اليوم مشغول الفكر إلى درجة لا تسمح له أن
يعامل الزملاء كالمعتاد. عندما وصل المصعد إلى الطابق الرابع خرج وهو
يقول له ألا يهتَمُّ وأن يداري أحواله الصحيَّة. لم يمرَّ ليشرَب القهوة عند
طوتي فقد كان قلقًا على مسألة الدفن، وبين كل أولئك الزملاء يشعر كأنه
حَبَّة بطاطا.

عندما دخل الغرفة قال له أحدهم بصوت جاد: "الرئيس ينتظرك لأمر
عاجل".

تلكَّأ جوفائتي عند باب غرفة الرئيس كعادته في مثل هذه الحاله التي
اكتسبها طوال سنوات، شدَّ عقدة ربطة عنقه عند القبَّة وشدَّ أطراف سترته
كي تبدو أطول مما هي ثمَّ تصنَّع عدم الاكتراث.
قرع الباب وفتحه بما يكفي لإدخال رأسه.
"من؟"، قال الدكتور.

"أنا، فيقالدي!"

كان الدكتور سباتسياني جالسًا وراء مكتبه الجميل وقد أحنى رأسه حتى لاصق أنفه الغلاف الأسود لدفتري وضعه على طاولة المكتب ويداه في شعره المدهن المبعثر، ينفض القشرة عن رأسه باهتمام.

"تعال، تعال هنا"، قال له دون أن يرفع رأسه بل استمر في عملية تنظيف رأسه بإصرار.

تقدم جوفائي بضغ خطوات وهو ينظر إلى رأس رئيسه الكبير وشعره المبعثر دون أن يراوده أي إحساس.

"أغلق الباب"، أمره.

"آ، عفوا"، قال جوفائي وأغلق الباب.

اقرب من المكتب وجلس أمامه وهو يشعر بالضيق.

أما الدكتور سباتسياني فلم يقرّر أن يرفع رأسه.

"اعذرنى ولكن يجب علي أن أنفض القشرة من حين لآخر. هذا عمل ضروري".

"تفضل، تفضل"، أجاب جوفائي وهو يشعر بالفراغ وينظر إلى هطول ذلك الندف الأبيض على الدفتري الأسود وعلى الطاولة خارج الدفتري.

"كيف حالك يا جوفائي"، ومد يده المليئة بالزيت نحو مرووسه.

شدّ جوفائي اليد الممدودة إليه وقد راوده شعور بالارتياح بعد سماع صوت صديقه ورئيسه الودود.

"نصف على نصف. هل أرسلت في طلبتي؟"

أخيرًا رفع الدكتور سباتسياني رأسه.

"أخبار طيبة، عزيزي جوفائي"، قال مبتسمًا: "اعتبارًا من الغد تستطيع

أن تستمتع بالتقاعد".

لم يصدر عن جوفائي ردّ الفعل الذي كان ينتظره الدكتور سباتسياني،
فقد تنازعت مشاعره متناقضة.

"أخيراً... أنا سعيد"، اكتفى بالإجابة.

سباتسياني، في أثناء ذلك، حدّد الهدف ووضع إصبعه الوسطى على
الطاولة واصطاد قطعة قشرة كبيرة بحجم قطعة نقود.

"انظر كم هي كبيرة هذه القطعة"، قال ذلك وحدّق في قطعة القشرة
بحبّ وكراهية. رفع جوفائي مؤخرته عن الكرسي ومدّ رقبته نحو الإصبع
الممدودة كي يرى أحسن، رمى الدكتور سباتسياني تلك القاذورة تحت
الطاولة.

"هنيئاً لك يا جوفائي"، قال بحزن وهو ينفض الدفتر مراراً على حافة
سلة المهملات.

"تصوّر ما أجمل ذلك. أنت تذهب أين يحلو لك وكلّ شهر تصلك
النقود إلى بيتك، هكذا، مجاناً".

تنفّس جوفائي عالياً بشيء من نفاذ الصبر. أخرج رئيس المكتب من
درج الطاولة مشطاً مشطاً به شعره بينما كان يتمعّن في صمت مروّسه.

"إذن؟ ألسنت مسروراً؟"

تلكاً جوفائي.

"في الواقع يؤسفني أن أترك المكتب. لقد اعتدت عليه".

"كلام فارغ"، قال سباتسياني بقوة: "سترى كيف ستكون سعيداً
وأنت مرتاح"، وأخرج من الدرج نفسه علبة من القصدير الأخضر مليئة
حتّى منتصفها بكريم الشعر.

"أنت محظوظ"، قال له وهو يضع الكريم فوق أذنيه: "أنت لوحذك
تقريباً، مصاريفك قليلة وتستطيع أن تعيش كالأغنياء".

"هل يزعجك إن جئت لزيارتك من حين لآخر؟"، سأله جوفائي على
استحياء.

نظر الدكتور سباتسياني إليه بانفعال وقد غمره شعور إنساني عميق.
"كلّما تريد. جوفائي، أنت تعرف كم أعزّك".
وقام عن كرسيه وفتح ذراعيه.
فزّ جوفائي واقفاً ودار حول المكتب وارتمى على صدر رئيسه.
"كان أبي يقول لي"، ناح الدكتور سباتسياني: "أحب من يحبّك،
حتّى لو كان كلباً".

ابتعد جوفائي عنه واستجمع شجاعته ونظر في عينيه.
"شكراً"، قال بصوت متهدّج.
أتجه نحو الباب وقبل أن يخرج شكّره مرّة أخرى.
فتح الدكتور سباتسياني ذراعيه كالخوري وقال:
"الامتنان هبة من يتلقّى... ماذا أعطيتك أنا؟ لا شيء".
"شكراً على كلّ حال"، قال جوفائي المتواضع وخرج.

عاد إلى غرفته مطأطئ الرأس وهناك وجد مجموعة من زملائه
المقرّبين ينتظرونه ومعهم زجاجة شامبانيا وكؤوس من ورق.
"هل رأيت؟ لقد وصلت أخيراً إلى التقاعد"، افتتح أحدهم سلسلة
عبارات المجاملة.

"سنشتاق إليك كثيرًا! لقد قدّمت خدمات كبيرة للوزارة! سننال
مكافأة كبيرة كتعويض لنهاية الخدمة!"
وهكذا تتوالى عبارات المجاملة والتهنئة ثمّ العناق والقبلات وإلى ما
هنالك من الاحتفاء وشرب الأنخاب.
"صحة. بصحتك". في النهاية قدّموا له ميدالية ذهبية "ذكرى من
الزملاء"، قالوا له.

اعتبارًا من ذلك اليوم، كلُّ النقود التي أعطها للدولة خلال عشرات السنوات والتي اقتطعتها الدولة من راتبه ستعود إلى صاحبها الشرعي. لقد بدأت فترة الراحة التي استحقَّها. كان قد دخل العمل موظفًا وهاهو يتركه متقاعدًا.

قام برحلته الأخيرة من المكتب إلى البيت وقد تخدَّرت حواسه، وكان بين الحين والآخر ينظر إلى نفسه وهو يقود سيَّارته الفيات العتيقة برعونة المتقاعدين، دون وعي منه.

مرَّت ساعات بعد الظهر بلمح البصر وبصمت شبه كامل وهو جالس أمام جهاز التلفزيون الذي يذكِّره بالأيام التي قضاها جالسًا أمام التلفزيون بهدوء دون أن يفكِّر بشيء ودون أن يخرج من المنزل وقد اعترته الحمى قليلاً وعلى بطنه قربة الماء الساخن ليخفِّف من ألم المغص.

لم يعد حلمًا أن يعيش من دخل دون عمل، وفي حالته هذه، الدخل أكيد وثابت في مواعده بشكل حسابي كما لم يكن أي شيء في حياته. ولكي يتمتع بهذا الدخل ليس لديه ساعات بعد الظهر فقط بل لديه اليوم كلُّه صباحًا ومساءً. ما عليه إلا أن يختار ماذا يريد أن يفعل وأن ينتشي بالحرية.

لم يقل لزوجته شيئًا. كان يريد أن يفكِّر بالأمر مليًا، يريد أن يرتب أفكاره فما زالت تدور في رأسه مخاوف الدفن اللعين الذي لم يقم به كما يجب.

"يجب أن أعود هناك"، كان يقول لنفسه: "يجب أن أعود".

في تلك الليلة أزاح عن كاهله فصل الواجبات المدنية والتضحيات والعمل وفتح باب عالم المتقاعدين الهادئ. لكنَّه لم ينم براحة، كان يتقلَّب من جانب إلى آخر في عالم مبهم، لا هو نوم ولا هو سهاد، تتنازعه أفكار

ملحةً وخوفٌ صاحبه كلُّ مرّةٍ عشية حدث هام، مثل الخوف الذي كان يشعر به عندما كان طفلاً عشية عيد الميلاد بانتظار الهدية فلا يستطيع الغوص في عالم الأحلام السعيدة ككلِّ ذي نفس حرّة، من شدّة تلّهفه للفجر. كان خائفاً من الحلم، كان يخاف أن يرى في حلمه، في عينيه المغلقتين، كلباً ينبش قبر القاتل.

كان ذلك الصباح يوم عيد مرّتين عند جوفائي فقد كان يوم أحد وأول يوم من أيام عطلة طويلة.

لم تسمح له هذه المصادفة أن يثمن الهبة التي نالها بعدم الذهاب إلى المكتب. في المطبخ وجد إناء ما زال نظيفاً كي يغلي فيه الحليب. خلال خروجه ودخوله من غرفة إلى أخرى كان يشتم تلك الرائحة الحمضية الحادة التي تميّز بيته. الرائحة في الصباح أقوى. تكونت هذه الرائحة خلال السنوات حتّى أصبحت رائحة شخصيّة التصقت بجلده. كانت تفوح من الأقمشة ومن أدراج الخزانات ومن مسام الأثاث ومن الفراش ومن زجاج الأنوار ومن كل شيء: رائحة نفاذة لا تنفد.

قبل أن يروي كل شيء لزوجته وقبل أن يطعمها طعام الفطور، فتح النوافذ كي يدخل النور والهواء. لم يكن نهاراً جميلاً، لا بدّ أنّ هناك منطقة من المنخفض الجوي في السماء فوق حي توسكولانو.

ترك الحليب يغلي عدّة دقائق للقضاء على الميكروبات. ثمّ ملأ فنجاناً أبيض كبيراً بالحليب ووضع فيه السكر وقطرات الدواء ثمّ وضعه على صينية من البلاستيك وتوجّه نحو زوجته وعليه سمات الرجل النشط والزوج الخدم المحبّ الراضي على نفسه وعلى حياته. وضع الطبق على رفّ خزانة الصحون وفتح درجاً من أدراجها وأخذ منه فوطة خضراء:

"لقد أحضرت لك الحليب. أماليا، هل تعرفين ما الجديد؟"

انحنى فوق زوجته وقبّلها على جبينها:

"من اليوم فصاعدًا سنعيش من دخل بلا عمل"، استمرّ قائلاً.

لكنّه أصيب بضربة على دماغه: كانت أماليا باردة كطنجرة.

رأى بعينية المتحجّرتين جسم المرأة يميل ببطء إلى جهة واحدة كتمثال تحت تأثير القبلة التي طبعها على جبهتها، ثمّ يتهاوى على يد الكرسي. ثمّ شاهد الرأس يغلبُ تصلّبُ العنق ويتدلّى في الفراغ.

منذ المرّة الأخيرة التي نظر إليها مرّت قرون طويلة. ماتت أماليا، جالسة على كرسي، بصمت. بقي منها هيكل أخرس مسنود على كرسي الخيزران منذ زمن غير معروف.

ماتت. كان وجهها وجه عجوز مسكينة. هطل على جلدها شيء ما بين الضباب والبودرة، وأظافرها أصبحت سوداء كأظافر الحلاقات، ونزلت خصلة شعر على عينيها.

"أماليا، لا"، صرخ جوفائيّ.

فتح الباب على مصراعيه وخرج الى الدرج وصرخ بكل ما أوتي من قوة:

"الحقوني، الحقوني، زوجتي ماتت!"

اصفرّ وجهه وغاب عن الوعي وقد تبلّل بعرق بارد.

طلّ كلُّ الأجداد القاطنين في العمارة. بعضهم جاء ليساعد جوفائيّ، بينما عاد الآخرون إلى بيوتهم بعد أن فهموا ما جرى وآثروا أن يفسحوا المجال لبناتهم.

تجمّعت النساء قرب باب الأرمل يرسمن علامة الصليب ويصلين.

واحدة منهن، السيدة مرغريتا، تميّزت عن الأخريات لقوّة عزمها

ومهارتها، وأعدت النظام إلى مدخل البيت، وبشكيمة الممرضة الخبيرة جعلت جوفائي يتمدد على السرير وأبعدت كل النسوة الفضوليات.
أتصلت بالطبيب الشرعي بالهاتف وطلبت منه أن يحضر ليتأكد من موت أماليا ثم أتصلت بالأبرشية وطلبت الخوري.
أغلقت كل النوافذ.

ذهبت إلى المطبخ وغرزت يديها في إناء الملح ورشته بسخاء على الأرض.

جاءت بنصفي شمعتين وصحنتين وأشعلت الفتيل وتركت الشمع ينساب على الصحنتين عند قدمي الميتة التي مازالت جثتها مرمية على كرسي الخيزران.

في الحمام وجدت قليلاً من العطر، نصف زجاجة ماركة "فلتشيته أذوورة"، فحملتها ورشت العطر على جثة الميتة من رأسها حتى قدميها.

أخيراً جاءت قرب جوفائي الذي كان يبكي وقد تكوّر على السرير كالجنين.

كلمات قليلة كما يتطلب الحال وبنبرة مهتية كمن يواسي لأن مهنته تقتضي منه ذلك. بكلمات قليلة، السيدة مرغريتا كانت تعرف كيف تتصرف وفي ساعة الموت كانت قادرة على مواجهة الأمور.

كانت مثل جوفائي تعرف أسرار المصائب كلها. لقد مرّت بها كل المصائب فليس هناك مصيبة لا تعرف كيف تواجهها وكيف تخرج منها دون أذى. لقد تجمعت لديها التجارب المختلفة حتى أصبحت صاحبة خبرة في حالات المرض والموت والجنائز.

في العمارة كان الجميع يعرفها فهي تعرف عزّ الإبر وتغير العصابة وتحضير الحقن واستعمال أدوات التنظير المعوية.

كانوا يحبونها ويحترمونها فهم جميعًا يعرفون أنهم سيستقبلونها عاجلاً أم آجلاً في بيوتهم كما استقبلها جوفائي اليوم.

اقتربت من الأرملة الحزين وحاولت إيقاظه من خدره وإعادته إلى واقع الحال.

مررت تحت منخريه دخان قطعة قماش حرقتها، ولطمته ثلاث أو أربع مرّات على رأسه وعلى خديّيه، ووضعت تحت أنفه قارورة مزيل البقع كي يشم رائحتها ثم أعطته ملعقة خلّ ليشربها.

استفاق الرجل بين تأنأة وأنين وبدأ يستسلم للأمر الواقع وقد وضع رأسه بين يديه.

كانت المرأة صلبة في عملها كمرضة ومنتبهة تلتقط بين كل ما يئن به المسكين تلك الكلمات التي تصدر عن النفس اليائسة دفاعاً تلقائياً عن ذاتها حسب ما يقتضي قانون الاستمرار في الحياة الطبيعي، فتلقّف ما يقوله ليواسي نفسه وتدعوه أن يفكر بما يقول وماذا يعني بقوله وما لم يقله بعد.

كانت تشجعه على إبراز لحظات الحقيقة تلك كي تعيده إلى أرض الواقع وتدخله شيئاً فشيئاً في حالته الجديدة كأرمل.

وجد في نفسه، على غير توقّع منه، القوّة كي يلقي نظرة أخرى على الميئة.

أمسك بيد السيّدة مرغريتا وشدّها عليها بقوة وسحبها معه حتى وصلا أمام الجئة.

ذلك الشيء الذي كان يوماً آماليا، كان بلا حراك في الظلام كتمثال السيدة العذراء جالسة بين شمعتين مضيئتين.

أثارت رائحة العطر المنبعثة من ملابسها شفقة جوفائي فتلك الرائحة ذكّرتّه بها حيّة وشابّة، عندما كانت تذهب معه بكامل هندامها، يوم الأحد الأخير من كل شهر بعد الغذاء، لياكلا البوظة مع القهوة عند فاسي في ساحة "فيتوريو".

كم كانت الحياة جميلة آنذاك. ما أجمل تلك الأيام!

جاء الطبيب الشرعي أولاً وسجّل موت السيدة فيفالدي ثمّ جاء الخوري وباركها بسرعة خارقة دون أن يلتقط أنفاسه وقد سدّ منخريه مخافة أن يغمى عليه من رائحة العطر الفائحة منها.

مرّت اللحظات العصبية، وبعد أن شرب جوفائي نصف دزينة من فناجين القهوة ساعد السيدة مرغريتا على نقل الجثمان إلى السرير، هي من القدمين وهو من الأيطين، ثمّ وضعها فوق الغطاء.

عندما رآها جوفائي ملقاة على السرير بلا حياة تأتأ كلمات بلا معنى وعاود العويل والبكاء وهو واقف لا يتحرّك ويداه إلى جانبيه.

تركته السيدة مرغريتا ينفّس عن كربه قليلاً ثمّ قادته بلطف خارج الغرفة وخطوة خطوة وضعت أمام الهاتف.

"اتّصل بالأهل وبالأصدقاء"، قالت له ووضعت دليل الهاتف أمامه. بحث جوفائي عن نظّارتيه ووضعها على عينيّه وبدأ بالدكتور سباتسياني.

"كن قويّاً! كن قويّاً"، قال له رئيسه: "مسكينة... ولكن هكذا أحسن... لقد ارتاحت... هكذا أحسن... أحسن من أن تموت تحت عجلات القطار... هكذا أحسن... خذ مني!" بين نحيب وآخر كان جوفائي يقول "نعم... نعم".

بعد الدكتور سباتسياني اتّصل جوفائي بزملائه في المكتب حسب ترتيب درجاتهم في العمل وكلّهم واسوه وعزّوه وحننوا لأجله. "النفوس الكبيرة تقوى تحت ضربات القدر"، قالوا له. "من كلّ جرح يخرج القليل من الدم ويدخل الكثير من الحكمة".

في تلك الأثناء كانت السيدة مرغريتا ترتب أماليا المسكينة وتلبسها أحسن ملابسها. وحيث أنه عندما لفظت الرمق الأخير كان ساقاها منفرجتين اضطرت مرغريتا أن تربطهما كي يبدو منظرها محتشماً فربطتهما بزئار لباس المنزل وجعلت العقدة تحت فخذيهما.

وضعت الشمعتين على الأرض عند السرير ووضعت يدي الميتة متصلبتين على صدرها ووضعت بين أصابعها مسبحة.

مشطت لها شعرها وربت لها هندامها ثم جثت على ركبتها وصلت ثم خرجت على رؤوس أصابع قدميها.

وجدت جوفائي مازال أمام الهاتف متردداً: "أعتقد أنه لم يبق أحد"، قال وهو يستعيد في نفسه أسماء أصدقائه ومعارفه.

"لا تشغل بالك"، أجابته: "إن نسيت أحداً فتستطيع أن ترسل له برقية غداً. الآن يجب أن ترتب أمر الجنازة. يجب أن تذهب إلى وكالة لدفن الموتى. هناك واحدة لا تكلف كثيراً ويمكن الدفع بالتقسيط، قريبة من هنا، مفتوحة يوم الأحد أيضاً!"

"شكراً يا سيدتي. إنك خيرة حقاً"، قال جوفائي.

هكذا سار الرجل والمرأة نحو وكالة دفن الموتى.

طالت الساعات قبل أن ينبلج الصبح. جاء الفجر حزينًا واستمرَّ طويلاً.

كان صبح يوم جاء بعد يوم آخر، هكذا فكَّر جوفائي. الجنازة ليست مفاجئة فهي تلي الموت كما يتلو الصبح الليل.
"ستمطر"، كان جوفائي متأكدًا من ذلك.

كانت السماء حزينة مثله والجو مناسب للأفكار السيئة وفي ذلك الجوَّ راودته ذكرى جثة القتال... لكن الوقت غير مناسب لذلك فأعاد ذلك التخوُّف إلى داخله.

نزل الخوري أمام النعش الذي حمله جوفائي وثلاثة من رجال وكالة دفن الموتى على أكتافهم. خلف النعش سارت السيدة مرغريتا يتبعها الموظفون.

على الدرج عند أبواب المنازل وقفت النساء مع أطفالهن يرسمن علامة الصليب وبعض العجائز يبكين.

"هل ترين يا أماليا؟"، كان جوفائي يقول لنفسه ولزوجته: "يا ليتك ترين كم من الناس يحبُّونك!"

عندما خرج النعش من باب العمارة، سمع جوفائي صرير مصاريع الدكاكين القريبة وهي تنزل حدادًا على الميَّته فراوده شعور بالفخر.
"من كان يتصوَّر كلَّ هذا؟"، قال لنفسه.

وُضِعَ النعش في سَيَّارة نقل الموتى ثمَّ وُضِعَت عليه أكاليل الزهور ومخدَّة من ورق الغار كُتِبَ عليها "الإخوان في المحفل الماسوني ذي الطقس الاسكتلندي العتيق والمقبول أرتورو طوسكانييني".

ارتفعت رؤوس كثيرة تراقب السحب، ولكن لم يكن ما يستدعي الفلق فالكنيسة قريية والمسيرة لن تدوم إلا قليلاً. إنَّها الكنيسة نفسها التي كانت تذهب إليها السيِّدة أماليا أيام الآحاد ومنها كانت تأخذ الماء المبارك.

وُضِعَ النعش على مسندين واطنَّين بين أربعة شمعدانات مشتعلة أمام الهيكل ووُضِعَت عليه ملاءة سوداء طُرِّزَتْ على زواياها الأربع بخيط ذهبي أربع جماجم.

ذهب الخوري ليضع مسوح الطقوس وجلس الأرملة والسيِّدة مرغريتا وكلُّ الحضور في الصفوف الأولى.

لم يكن في الكنيسة في تلك الساعة إلا بضع عجائز كنَّ قد قرأن الإعلان الملصق على باب الكنيسة وعلمن بالقدَّاس والجنَّاز فحضرن وفِيَّات كعادتهن.

قُرِعَ الجرس جانب الباب عند الهيكل معلناً وصول الخوري.
بدأ القدَّاس على روح الميِّتة.

بدأ الخوري برفقة الخادَمين الصغِيرين يصعد الدرجات القليلة عند الهيكل وينزل منها ويتمم عبارات مبهمة غامضة ثمَّ يركع ويضرب على صدره ويصلِّب ويقبِّل الدرج وتزيينات مائدة الهيكل وملاءتها ثمَّ يتوجَّه نحو المؤمنين ويباركهم باسم الرب.

أمسك بتلاباب ثوبه الأسود وبيده الأخرى مفتاحاً ذهبياً صغيراً فتح به نافذة كَوَّة صغيرة كانت وراء ستار أخرج منها الكأس الثمينة ورفعها فوق رأسه. استدار وفتح ذراعيه مُهدِّداً.

كان جوفائي يتابع القدَّاس وقد غرز قدميه في الأرض أكثر من شبر

وغمره شعورٌ بالاغتراب عن نفسه وعن الدنيا.

تقدّم الكاهن ووقف أمام النعش ليبدأ الخطبة.

"ما أصغر الإنسان..."، بدأ خطبته.

كانت السيدة مرغريتا قد قالت لجوفاني إن ذلك الخوري يعرف ما يفعل وأنه خدومٌ يقوم بكلّ ما يمكن القيام به للأبرشية وللمؤمنين. إنه إنسانٌ طيّب وكريم تُقدّره السيّدات المحسنات من وليّات القديس فيثشنسو دي باولي.

كانت الاشاعات المفترية تقول إنه يكره البابا حسداً منه، لذلك كانوا يسامحونه إذا بدر منه بعض الغضب أو بعض الحقد فهو بهذه الخطيئة إنسانٌ مثل غيره.

"من الأفضل له أن يصبح قديساً مثل أبينا ييو"، كان يقول الشرّيون.

استمع الأرمل إلى الخطبة بتضامنٍ إنسانيٍّ مع الخطيب وبمشاركةٍ علمانيّةٍ منه.

"ما أصغر بني الإنسان... يقضون حاجاتهم الجسديّة والجنسيّة ويعملون كل كبيرةٍ وصغيرةٍ ثمّ يذهبون إلى العالم الآخر!"

تحدث عن الضمير، عن الخطايا التي لا يستطيع إلا الله الحكم عليها وعن الظلم الفاضح لبني الإنسان وعن الفضيلة وعن الصلاة.

لقد كان يعرف السيّدة أماليا فقد كانت امرأة مؤمنة كريمة مثلاً للإخلاص للكنيسة وللمبادئها.

وكلما تكلم زاد حماسه ولوّّن كلماته بألوان وجهه.

لم يكن يُحاجج حول الهبات الإلهيّة بل حول ذنوب الناس وأخطائهم وظلمهم وجبنهم وأطماعهم وتفاهة أمور الدنيا وممالكها ودولها ورجالها.

كم من الذنوب والخطايا يضطرُّ أن يسمع كلَّ يومٍ في كرسي الاعتراف!

من يستطيع أن يصدر حُكمًا على الناس وعلى ما يجري في بيوتهم سرًّا خيرًا منه.

لو كان يستطيع أن يصدر حُكمًا شاملاً على خطايا الناس لدعا أن يغمر الطوفان الدنيا، لأصدر حُكمًا نهائيًا بالموت الشامل.

ولكنَّ هذه الأمور يقررها الربُّ، والربُّ واسع الرحمة يدعنا نعيش بسلام بانتظار أن نكفِّر عن خطايانا.

لقد حانت الساعة، ساعة أماليا، وهاهي عارية أمام الله. ولا يبقى لأهلها وأصحابها إلا أن يصلُّوا ويدعوا لها برحمة القاضي الأعظم.

كان جوفائي كالإسفنجة الناشفة العطشى يتشربُ كلَّ كلمة من كلمات الكاهن، تدخل في مسام جلده كما تدخل كلُّ فواصل تلك الخطبة الحميمة الصادقة وكلُّ نقاطها.

بعد المقبرة وبعد أن انتهت المرحلة الأخيرة من الطقس الجنائزي وجد جوفائي نفسه وحيداً في البيت: ودّعته السيدة مرغريتا عند عتبة الباب وذهبت في حال سبيلها.

أغلق الباب فكان له صدئ كغطاء القدر الفارغة.

اعتراه خوفٌ من البقاء وحيداً، لكنّه حاول أن يتغلّب على خوفه من ذلك البيت فطاف فيه دون أن يعرف أين يتوقّف.

رأى أن الطقس قد بدأ يفني بوعيده المكفهر الذي جاء به منذ الصباح الباكر، فقد بدأ بالهطول مطرٌ متعبٌ من أوّل قطراته.

أخافه أن ليس له ما يعملُه إلا أن يُفكّرَ بها، بزوجته المسكينة وبنهاية الحياة.

لم يجرؤ أن يفتح الخزانة مخافة أن يرى ملابس أماليا، لم يجرؤ أن يقترب من الجوارير كي لا يمسّ ما مسّت يداها الحبيبتان.

كلُّ هذا عذابٌ له: أن يبقى هناك صامتاً ورأسه محشوٌّ بأفكارٍ قاتمة وبشوقٍ أليم.

ما العمل إذن؟ الصلاة وحرزٌ أكبر.

في نهاية المطاف يستطيع أن يستخدم الشقّة للنوم فقط لكنه بات يظنُّ أنّها غير صالحة حتّى لذاك.

بعد وهلةٍ جاءت السيدة مرغريتا كي تطمئنّ على أحوال الأرملة الجديد. سألته كيف حاله وكيف حياة العزويّة.

سألته المرأة تلك الأسئلة بنبرة الخبير في مثل هذه المسائل والذي يعرف الجواب.

"ليس بخير. كل شيء يذكرني بأماليا... أراها هنا وأراها هناك وهناك!"

"هذا طبيعي"، قالت وضربت يديها على فخذيها: "هنا ذكريات كثيرة وأشياء كثيرة لا فائدة منها... يجب أن تغيّر أماكن الأثاث، يجب أن تُعطي كل ما لا يلزم... هكذا يعمل الجميع!"

شمرت عن ذراعيها وأمرت: "هيا إلى العمل!"

وضعا خزانة الملابس مكان خزانة الملابس الداخلية، أما الكراسي التي كانت تحت الشباك فقد نقلها إلى جانب الباب، اللوحات التي كانت في غرفة النوم وجدت مكانًا لها على حيطان غرفة الطعام، وصور غرفة الطعام ذهبت إلى غرفة النوم.

الطاولة التي كانت في وسط غرفة الجلوس أسندتها إلى الحائط ووضعها مكانها سجادة تشبه السجاجيد العجمية، وضعا عليها طاولة خفيضة وثلاثة مقاعد.

ثم فصلا أحد السريرين عن الآخر فأصبح السرير المزدوج سريرًا مفردًا.

وفي آخر المطاف جمعا جانب الباب كل ما قررت السيدة مرغريتا بسلطة العارف بالأمر أنه لا حاجة له في ذلك البيت.

بالطبع ستهتم هي بنقل الأشياء الزائدة بمساعدة ابنها.

هكذا أخذت نصف السرير والشراف المزدوجة وكرسي الخيزران الذي لم يعد جوفائي يستطيع النظر إليه وكل الملابس والأحذية والشالات والألبسة الداخلية للمرحومة أماليا.

من المطبخ استولت على الحلل الكبيرة وكل الملاعق والشوك

والسكاكين تقريبًا وأكثر الكؤوس والصحون والمقالي وتركت له فنجانًا واحدًا من طقم فناجين القهوة.

حمّلت على كتف ابنها الحمل الأخير وودعت جوفائي بعينين مُطمئنتين ولسان حالها يقول: "سترى أنّ كلَّ شيء سيسير على ما يرام!" وهكذا كان، فقد أدّى هذا العلاج إلى نتائج سريعة: كفى تغيير أماكن الأثاث واختفاء آثار الماضي ظاهريًا على الأقل كي يشعر الأرمل بقليلٍ من الراحة.

كان ذلك المنزل منزله بلا أدنى شك، ولكنه لم يكن يبدو كذلك بالمرّة.

أدرك الآن، وبخزٍ أكبر، أنّه أصبح بلا عائلة. واكتشف أيضًا، في أعماق نفسه، أنّه وإن لم يبقَ له من يحبّه فليس لديه أي خوف. لن تصيبه بعد اليوم أيّة مصيبة. لم يعد لديه أحدٌ يموت. لم يخدش قتامة مشاغله إلا أصوات حي "توسكولانو" تحت وقع المطر الذي انهمر غزيرًا فجأةً.

تفجّرت عاصفةٌ هوجاء حول العمارة. كان المطر ينهمر كالمزراب. شعر جوفائي ببردٍ مفاجئٍ يعتري ظهره، دعاه صوت الرعد كي يقترب من النافذة.

نظر إلى الشارع تحته ورأى الطوفان الذي يعذّب المدينة. أنهاز طافحةً بالمياه تنهمر من الشرفات، كما يقع الماء من الحلل المقلوبة، وتوجه نحو مجارٍ لا تستطيع أن تحتويها كلها وتتدفّق على مسار سكة الترام حاملة الطين والنفائات.

أصاب جوفائي شكٌ تحول إلى هلع مخيف. "يا إلهي!"، هتف بصوت واطئٍ محدثًا نفسه "القاتل!..." لقد كان الخطر شديدًا، بل إن الكارثة آتية لا محال، ولن ينقذه منها حتّى الرب نفسه.

كان إذ ينظر إلى الشارع يرى كيف تضرب الماء جذوع الأشجار وتدور حولها كالدوّار.

تخيّل حال شاطئ البركة حيث يرقد القاتل الذي لم يدفنه جيدًا.
كلما أبرقت السماء ارتسمت في حدقتي جوفائيّ صورٌ مرعبة: يدا الضحية البيضاءون تبتان كزهرتين دسمتين من تحت الأرض يغسلهما ماء المطر فتوضحان، الجثة تخرُج من الطين بغم مفتوح للغيوم يبصق ماء المطر بصوتٍ هازئ كما لو كان حيًا، ثمّ جماعةٌ من أناسٍ مُصفرّيّ الوجوه صامتين تحت مظلاتهم يحيطون بالجثة التي لفظتها الأرض.
كل هذا نتيجة لغباء من دفنه. يجب التحرك فورًا، يجب العودة هناك والاستيلاء على الجثة من جديد ودفنها دفنًا جديدًا.
هذه الضرورة الملحة أعطته القوة كي يواجه العاصفة.

سيعود في أسرع وقت، في تلك الليلة نفسها. وضع حذاءه الثقيل وتدبّر جيدًا ثمّ رفع سماعة الهاتف وخرج على رؤوس أصابع قدميه وهو يضع يده فوق جيبه ليطمئنّ لوجود مفاتيح البيت. أغلق الباب برقة واختفى.

بينما كان جوفائيّ يقترب رويدًا رويدًا من الريف أدرك أن العاصفة كانت شديدة في منطقة "توسكولانو" أكثر من غيرها.
لم تكن الحقول والحفر عائمة فعاودته شجاعته وهدأت نفسه.
أدار السيارة باتجاه البركة وأوقفها على بعد بضعة أمتار من الحفرة التي دفن فيها القاتل. نزل ودار حول المكان.
كان كلُّ شيء في مكانه. السكون يعمُّ الأرض، من فوقها ومن تحتها.
لا أحد يُرى لمسافة بعيدة، لا إنسان ولا حيوان.
رجع إلى السيارة وذهب إلى الكوخ حيث أخذ العدة: المعول والمجرف.

اختار في حرشٍ من أشجار التين البرية أكبر شجرة وبدأ العمل. كان
ينوي خلع الشجرة وزرعها بالقرب من الكوخ.

قام بعمله بالمجرف ويده وقدماه غارقة في الوحل، أما المعول فلم
يستخدمه إلا لقصّ الجذور الطويلة.
بعد ساعتين خُلعت الشجرة.

جلس جوفائيّ على الجذع كي يستردّ أنفاسه ثمّ سحب الشجرة مترًا
بعد متر بصبرٍ وأناة نحو الكوخ.

كانت يدها وعنقه مجبولةً بالطين وبحليب التين فلم يتوقف عن
حكّاكها. نظّف نفسه بالعشب المبلول واستدعى قوّته وبدأ بالعمل الأشدّ
إتعاّبًا.

حفر ثمّ حفر بكل طاقته، كان مطأطيّ الرأس وقدمه على المجرف
وذراعها الخشبي تحت إبطه يُخرِجُ التراب جرفَةً بعد جرفَةٍ، ويديّه
الجريحتين ينزع أحجارًا كبيرة من حواف الحفرة ويرميها خارجها ويحفر
عميقًا وعميقًا في الأرض.

في هزيع الليل كانت الحفرة قد أصبحت كبيرةً إلى درجةٍ يستطيع فيها
أن يضع فيها القاتل والسيارة أيضًا.

توقّف، لم يعد يرى الكوخ وراء تلة التراب الذي أزاحه وكوّمه.
صعد بصعوبة، وضع المجرف في السيارة وأسرع نحو المدفن عند
شاطئ البركة.

حفر هنا أيضًا لكنه أحسّ على الفور تقريبًا بملايس الضحية المبللة
تحت يديه.

أزاح الطين بأصابعه وبأظافره عن الجثة وأمسكها من القدمين
وسحبها.

"من هذا العمق"، فكّر بينما كان ينظر إلى الجثة المرمية في قعر

الحفرة: "لن يُخْرِجَهُ أَشْيَاءٌ وَلَا حَتَّى الزَّلْزَالِ".
ثمَّ بدأ يَغْطِي الحفرة جِرْفَةً بعد جِرْفَةٍ ورمى فيها الأحجار
والصلصال.

عندما قارب النهاية وقبل متر من الحافَّة زرع شجرة التين في وسط
الحفرة وركز الجذور بالأحجار ثمَّ طمر الحفرة وجمع حولها التراب.
الآن يستطيع أن يطمئن. ستنمو شجرة التين وستُظِلُّ الفسحة أمام
الكوخ خلال الصيف في السنوات القادمة.

عاد إلى البيت وقد قارب الليل نهايته. كان يرتجف من شدة التعب ولا يقوى على الوقوف على قدميه.

لقد كان عملاً مضنياً والآن يدرك أنه قد بالغ في التعب. من ناحية أخرى، في مثل هذه الأحوال، يصدق القول المأثور "اعمل اليوم تسترح غداً".

وزاد في تفاؤله اقتناعه أن أحداً لم يره لا في ذهابه ولا في إيابه. كل من يعرفه يحسبه في بيته لا ينام تلك الليلة الأولى من الوحشة. وهكذا وكى لا يخاطر البتة بدأ يمشي في الغرفة دون أن يُشعل النور وييده عود كبريتٍ مشتعل.

برقة كبيرة وضع سماعة الهاتف في مكانها ثم أوى إلى سريره. وجد صعوبة في العثور عليه فقد أصبح سريراً مفرداً بعد أن كان مزدوجاً ولم يكن في مكانه الذي اعتاد عليه.

أخيراً لمس بركبتيه فتنفّس الصعداء: كان متعباً حقاً.

وجد المنامة فخلع ثيابه وهوى على الفور خائر القوى في سبات عميق.

في الصباح التالي أحس بحاله أحسن بحاله أحسن. فتح عينيه الساعة خمسة ونصف، نظر إلى النافذة المعتمة ثم إلى المنبه واستدار على الجانب الآخر وانطوى على مرفقيه.

هكذا نام ساعةً أُخرى حتَّى الساعة السادسة والنصف أو السابعة إلا ربع عندما تسلل ضوء النهار عبرَ الشبَّاك المغلق ليرسم على وجهه ظلَّهُ. أخيرًا نهض. نظر إلى تلك الجدران الأربعة. جلس على كرسيٍّ كما لو كان في بيت شخصٍ آخر.

لاحظ أن ورق الجدران قد أصبح باهتًا، فحيث كانت الخزانة كان ورق الحائط مزهرًا أمَّا حول ذلك المستطيل فكان أصفر مُدخِنًا. كانت خزانة الملابس الداخليَّة في مكانها الجديد تبدو شيئًا آخر، وبدى له أنَّ المنضدتين على طرفي السرير الصغير قد وضعهما خادم كنيسة فهو قد نام دائمًا على الطرف اليساري من السرير، أمَّا الكرسيَّين الهزيلين بجانب الباب فكان منظرهما يُحزنه.

أغلق عينيه وتخيَّل غرفة نومه كما كانت ثمَّ فتحهما ورأى فجأةً أين كان، في غرفة جديدة غير أنَّها الغرفة القديمة نفسها. أغلق عينيه وفتحهما مرَّاتٍ عديدة. قام وذهب إلى المطبخ ليُعدَّ القهوة.

وضع إناء القهوة على النار وأخرج الفنجان الوحيد ووضع فيه ملعقتين من السكَّر.

ثمَّ، بانتظار أن تجهز القهوة أمسك ببقية قلم رصاص وجده في أحد الأدراج وبدأ يُجري بعض العمليات الحسابيَّة من الضرب إلى الطرح على قطعةٍ من كيس الخبز، قَسَم عدد المتقاعدين على عدد الأطفال وطرح بضع سنوات على سبيل الاحتياط وبضع سنواتٍ أخرى للحيطة والحذر وأنقص منها عشرة بالمئة كحسابٍ للخطأ.

بعد جمعٍ وضربٍ وطرحٍ حقق المسألة بدليل التسعة. قرَّر هكذا أنَّه قد يعيش خمس عشرة سنة أخرى ولا يمكن أن يستثني أن يصل المئة سنة

أما العشر سنوات فكانت أكيدة.

سمع القهوة تغلي.

ملاً جوفائي الفنجان ونفخ على حوافه بشفتين مزمومتين. كان ينفخ ويفكر أن صباحات السنوات الخمس عشرة التالية ستمر هكذا.

دار شرق/غرب

دار شرق/غرب (Sharq/Gharb) هي أول دار نشر إيطالية باللغة العربية. يهدف هذا المشروع إلى إيجاد جسور للتواصل بين أوروبا والعالم العربي وبين الأدباء والقراء العرب والأوروبيين. إلى يومنا هذا، غالبا ما يترجم الأدب الإيطالي إلى العربية بطريقة غير مباشرة، أي بالاستعانة بترجمات فرنسية أو إنجليزية. تسعى دار شرق/غرب إلى ملء هذا الفراغ وذلك بالتعاون مع ناشرين عرب وإنشاء شبكة توزيع في العالم العربي.

موظف عادي جداً

رواية

فنتشيزو تشرامي

• رواي إيطالي

«منذ الصفحة الأولى تأخذك رواية فنتشيزو تشرامي وتجبرك على إلقاء نظرة نقدية متفحّصة على عيّنة نموذجية تمثل جزءاً من المجتمع الإيطالي، ألا وهو عالم موظفي الدولة، عالم موظف في وزارة يقضي معظم حياته بتصريف معاملات الإحالة على التقاعد بانتظار إن يجيء دوره كي يتقاعد هو أيضاً، وفي أثناء ذلك يحاول توظيف ابنه في الوزارة نفسها وبمرتبة أعلى من مرتبته. يتوقّع القارئ من قراءة رواية تروي قصة موظفين لا غير أن تكون باهتة مملة قليلة الأحداث وقد يتوقّعها هازئة ساخرة من شخوصها. لكنّ الرواية جاءت على غير ما نتوقّعه فالأحداث فيها متتالية متسارعة مطبوعة بطابع قصصي شيق، كما في وصف مشهد طقوس الانتظام في محفل ماسوني أو في المشاهد العنيفة التي جعلت من بطل القصة لبضعة أيام نجماً من نجوم الصحافة التي تنقل أخبار الجريمة أو كما في تسلسل الأحداث التي تؤدي بالبطل إلى أن ينتقم لنفسه انتقاماً شنيعاً».

- إيتالو كالفينو

علي مولا



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ص. ب. 13-5574 شوران 2050-1102

بيروت - لبنان

هاتف: 785107/8 (+961-1)

فاكس: 786230 (+961-1)

البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

ISBN 978-9953-87-681-8



9 789953 876818

www.neelwafurat.com

نيل وفورات. كوم

جميع كتبنا متوفرة
على شبكة الإنترنت